جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالإسكندرية

الأضواء الرحمانية في السيرة النبوية

(العهد المدني)

الفرقة الرابعة (حديث)

اعداد
أعضاء هيئة التدريس بقسم الحديث بالكلية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الأزهر للطباعة بدمنهور
ت: ٠٤٥/٣٣٢١٧٣٨

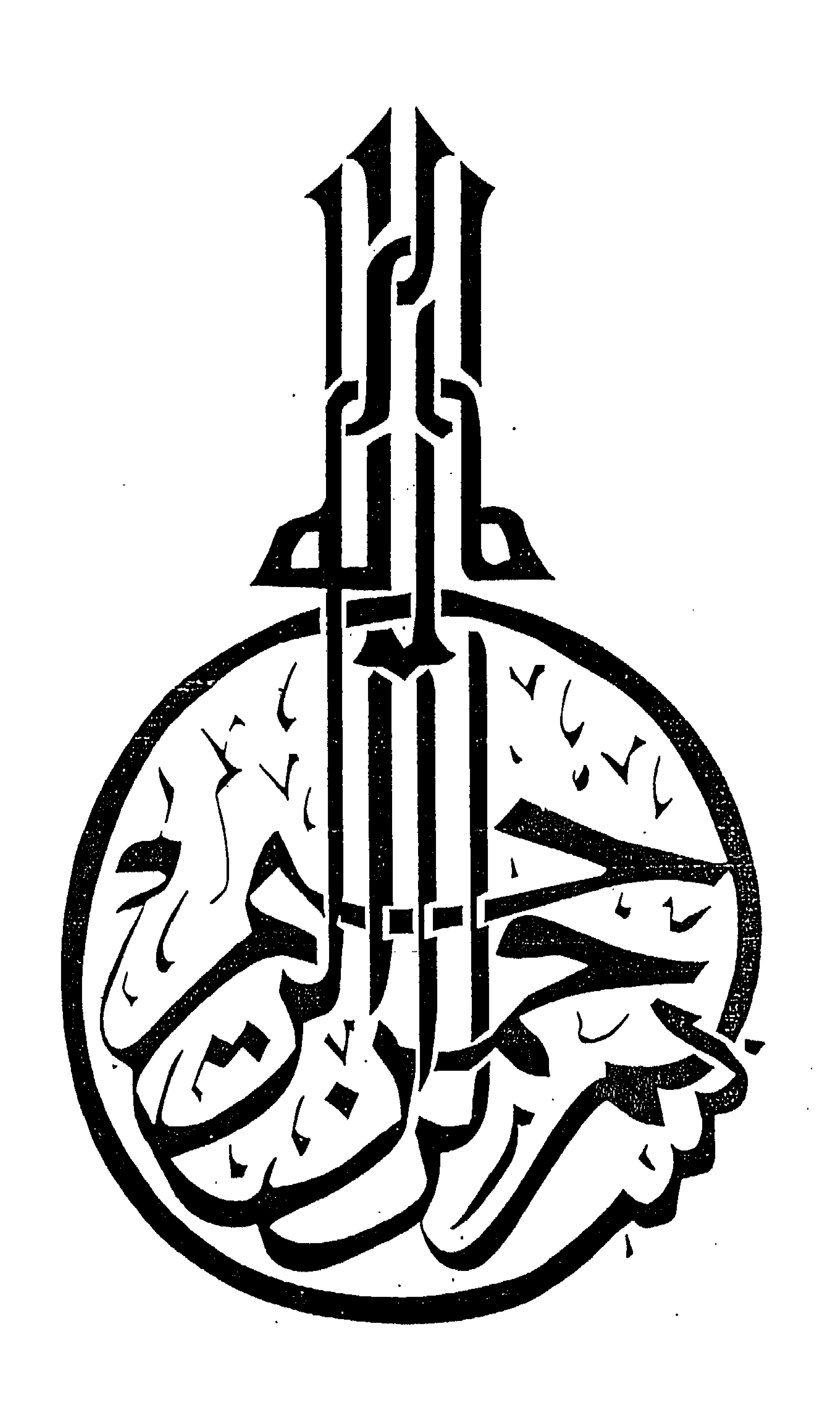
الأضواء الرحمانية
فى
السيرة النبوية
(العهد المدنى)

الفرقة الرابعة (حديث)

اعداد

أعضاء هيئة التدريس بقسم الحديث بالكلية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الملايين من المسلمين لا يعرفون عن سيرتك ياسيدى ومولاى محمد بن عبد الله التى تشدهم إلى السماء كما تشدهم إلى الأرض وخيراتها فى آن واحد ..

سيدى يارسول الله : من الصعب على أى كاتب أن يدرك أبعاد سيرتك يارسول الله وذلك لأن سيرتك هى المضمون والمحتوى لرسالتك التى أحيت أمة . بل أحيت البشرية كلها بالقيم العليا التى تدفع الإنسان دائماً غلأى الأمام .

سيدى يارسول الله : لقد ضحيت كثيراً فى سبيل الله وخير الإنسان وتحملت ما لا يطيقه أحد من الناس واستطعت بعد جهاد طويل ومرير أن تضع الحلول لكل ما يعترض البشرية كلها من صعاب ويعرقل مسيرتها نحو مستقبل أفضل يضمن للإنسان أى إنسان عزته وكرامته وسعادته فى الدارين .

ليست سيرتك ياسيدى يارسول الله : إلا قصة إنسان قد اتسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم فناضل وجاهد ووقف بحزم وثبات وقوة فى وجه القوى الغاشمة المفترسة من أجل الإخاء بين الناس ومن أجل العدالة بين البشر والحرية لكل البشر والمحبة والرحمة ومن

أجل مستقبل لجميع الناس بلا استثناء الذين يؤمنون بنبوتك ورسالتك والذين لا يؤمنون بهما على السواء .

- ولقد أجاد وأفاض " **أبو الحسن الشاذلى** " حين قال :

" محمد بشر لا كالبشر لكنه ياقوت بين الحجر "

فسلام عليك ياسيدى يارسول الله فى الأولين والآخرين وصلى اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أ.د/ حامد أحمد حماد

أستاذ الحديث وعلومه

بكلية البنات فرع جامعة الأزهر

بالإسكندرية

هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة

مضى على الإسلام ثلاث عشرة سنة والنبي في مكة بين أعدائه ، ومعه علي وأبو بكر ، وأما باقي الصحابة فقد خلوا ديارهم وعشيرتهم وهاجروا إلى المدينة أو الحبشة ، حيث الأمن والدعوة . وكان الموقف حرجاً ، وطلب أبو بكر من الرسول الخروج إلى المدينة ، فأجابه النبي أن الله لم يأمر بذلك بعد (١) .

اجتماع دار الندوة وقرار قريش الأخير

وظهرت حكمة ذلك عندما قررت قريش قرارها الأخير ، فقد ذهبت جميع الجهود التي بذلوها لينالوا من محمد وصحبه ، فأزداد حنقهم ، وطفح الكيل ، ولم يبق في قوس الصبر منزع ، ووجدوا أخيراً أن محمداً يكاد يكون وحيداً في مكة ، لا نصير ولا معين ، فعقدوا اجتماعاً في دار الندوة ، حيث اعتادوا التداول والفصل في شئون أمتهم . اجتمع رؤساء قريش للتشاور فيما يصنعونه بمحمد ، فاقترح بعضهم : أن يُحبس في الحديد ، وأن يغلقوا عليه بابا ثم يتربصون به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، ولكن هذا الرأي لم يلق سمعاً، فقال آخر : نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ، ثم لا نبالي بعد ذلك من أمره شيئاً ، ولكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة ، فيحرض أهلها عليهم ، بما له من قوة الإقناع ، فيقصدوهم ويبطشوا بهم . واقترح

---

(١) رأى الرسـول دار الهجـرة في المنام . فقد روي البخاري في صحيحه عن أبـي موسى عن النبي : " رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخـل ... الـخ " فتح الباري ٢٢٦/٧ وعند البيهقي من حديث صهيب رفعه "رأيـت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرّتين فإما أن تكون هَجَر أو يثرب " ولم يذكر اليمامة . البيهقي دلائل النبوة ٥٢٢/٢.

أبوجهل أخيراً أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جليداً ، وأن يعطوا كل فتى سيفاً بتاراً ، فيضربوه جميعاً ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين القبائل ، ولا تقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعاً ، فيرضون فيه بالدية ، وتستريح قريش من هذا الذي بدد شملها ، وفرق قبائلها شيعاً . فستقر رأيهم على هذا الاقتراح بالإجماع .

۞۞۞

مغادرة الرسول ﷺ داره وذهابه للغار ومعه أبو بكر [1]

طلائع المهاجرين :

عن البراء ﷺ قال : (أول من قدم علينا مصعب بن عمير) [2].

(فقلنا له : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقال : هو مكانه وأصحابه على أثري) [3].

(ثمَّ قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ) قد سمَّى ابن إسحاق منهم زيد بن الخطَّاب ، وسعيد بن زيد بن عمرو ، وعمر بن سراقة ، وأخاه عبد الله وواقد بن عبد الله ، وخالداً ، وإياساً ، وعامراً ، وعاقلاً بني البكير ، وخنيس – بمعجمة ونون ثمَّ سين مصغَّراً – ابن حذافة وعيَّاش بن ربيعة ، وخولي بن أبي خولي وأخاه ، هؤلاء كلهم من أقارب عمر وحلفائهم ، قالوا فنزلوا جميعاً على رفاعة بن عبد المنذر ، يعني بقباء[4] وبقية العشرين لعلَّهم كانوا من أتباعهم [5].

---

(١) الحديث مطولاً في فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/٢٣٠-٢٣٢ حديث رقم ٣٩٠٥.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٢٥٩-٢٦٠ (٣٩٢٤ – ٣٩٢٥).

(٣) البيهقي : الدلائل ٢/٤٦٣ ، فتح الباري ٧/٢٦٠ .

(٤) ابن هشام ١/٤٧٦-٤٧٧ .

(٥) فتح الباري ٧/٢٦١ .

(حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله ﷺ) في رواية عبدالله ابن رجاء (فخرج الناس حين قدم المدينة في الطريق وعلى البيوت ، والغلمان والخدم يقولون : جاء محمد رسول الله ، الله أكبر ، جاء محمد رسول الله ﷺ)[1] وأخرج الحاكم من طريق إسحاق بن أبي طلحة عن أنس (فخرجت جوارٍ من بني النجار يضربن بالدُفّ وهُنَّ يقُلن :

نحن جوار من بني النجار يا حبّذا محمّد من جار[2]

وأخرجه أبو سعيد في " شرف المصطفى "، ورويناه في "فوائد الخلعي " من طريق عبيد الله عن عائشة منقطعاً : لَمَّا دخل النبي ﷺ المدينة جعل الولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع [3]

وسنده معضل [4]، ولعل ذلك كان في قدومه من غزوة تبوك[5].

هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة :

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : (لم أغفل أبوي قط إلاّ وهم يدينان الدّين ، ولم يمر علينا يوم يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعيشة ، فلمّا ابتُليَ المسلمون خرج أبوبكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ بركَ الغماد لقيه ابن الدّغِنة وهو سيد القارة فقال : أين تريد

---

(١) البيهقي دلائل النبوة ٢/٥٠٦ .
(٢) البيهقي دلائل النبوة ٢/٥٠٨ .
(٣) البيهقي دلائل النبوة ٢/٥٠٦- ٥٠٧ .
(٤) المعضل : قال العراقي : هو ما سقط من إسناده اثنان فصاعداً من موضع واحد ، فأمّا إذا سقط راو من مكان ثمّ راو من موضع آخر فهو منقطع في موضعين .
(٥) فتح الباري ٧/٢٦١ - ٢٦١ .

يـــا أبـــا بكـــر ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعــبد ربي . قال ابن الدّغنة : فإنّ مثلك يا أبا بكر لا يَخرُجُ لا يُخرَج إنك تَكْسبُ المعـــدوم وتصـــل الرحم وتحمل الكَلّ وتقري الضيف وتعين على نوائـــب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، وارتحل معه ابن الدّغنة ، فطاف ابن الدّغنة عشية في أشرف قريش فقال لهم : إنّ أبا بكر لا يَخـرُجُ مـثلُهُ ولا يُخرَجُ ، أتخرِجُون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمـــل الكَــلّ ويَقْري الضيف ويعين على نوائب الحق ، فلم تُكذب قريش بجـــوار ابــن الدّغــنة وقالوا لابن الدّغنة : مُر أبابكر فليعبد ربه في داره فليُصَـــل فـــيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإنّا نخشى أن يفتــن نســـاءنا وأبناءنا ، فقال ذلك ابن الدّغنة لأبي بكر ، فلبث أبوبكر بذلك يعـــبد ربـــه في داره ولا يستعلن بصلاته ، لا يقرأ في غيره داره ، ثمّ بدا لأبـــي بكـــر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فينقذف علـــيه نســـاء المشـــركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبوبكر رجلاً بكّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش مـــن المشـــركين فأرســـلوا إلى ابن الدّغنة فقدم عليهم فقالوا : إنّا كنا أجرنا أبابكـــر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفـــناء داره فأعلــن بالصـــلاة والقراءة ، فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبـــى إلاّ أن يعلـــن بذلـــك فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نُخفركَ ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان . قالت عائشة : فأتى ابن الدّغنة إلى أبي بكر فقال : قد علمت الذي عاقدتُ لك عليه فإمّا أن تقتصر على ذلك ، وإمّا أن تـــرجع إلـــيّ ذمّتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل

عقـدت له ، فقال أبوبكر : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجـل ، والنبي ﷺ يومئذ بمكة ، فقال النبي ﷺ للمسلمين : غني أُريتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان ، فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهَّز أبوبكر قبل المديـنة ، فقـال له رسول الله ﷺ : على رِسْلِك فإني أرجو أن يؤذن لي . فقـال أبوبكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟.قال : نعم ، فحبس أبوبكر نفسه علـى رسـول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمُر وهو الخـبطُ أربعة أشهر ، قال ابن شهاب قال عروة : قالت عائشة : فبينما نحن يومـاً جلـوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ مقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبوبكر : فداءٌ له أبي وأمـي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاسـتأذن فأذن له فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرِجْ من عندك ، فقـال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يارسول الله قال : فإني قد أُذِنَ لي في الخروج ، فقال أبو بكر : الصحابة بأبي أنت يارسول الله .

قـال رسـول الله ﷺ : نعـم قال أبوبكر فخذ بأبي أنت يارسول الله إحـدى راحلتيَّ هاتين . قال رسول الله : بالثمن ، قالت عائشة : فجهزناهما أحـثَّ الجهاز وصنعنا لهما سُفْرَةً في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعـة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سُميت ذات النطاق . قالـت : ثُمَّ لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمُنا فيه ثلاث لـيال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عـندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعـاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن

فُهـيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشـاء فيبيتان فى رسل وهو لبنُ منحتهما ورَضيفهما حتى ينعقَ بها عامر بـن فهـيرة بغلَس يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث ، واستأجر رسـول الله ﷺ وأبـو بكر رجلاً من بنى الدّيل وهو من بنى عبد بن عدى هاديـاً خِرّيتاً ، والخِرّيت الماهر بالهداية ، قد غمس حِلفاً فى آل العاص بن وائـل السـهمى وهـو على دين كفار قريش ، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صُبْحَ ثلاث .

وانطلـق معهما عامر بن فهيرة والدّليل ، فأخذ بهم طريق الساحل .

قـال ابـن شهاب : وأخبرنى عبد الرحمن بن مالك المدلجيُّ وهو ابن أخى سُـراقة بن مالك بن جُعْشُم أنَّ أباه أخبره أنهُ سمع سراقة بن جعشم يقول : جاءنـا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر دية كل واحد مـنهما من قتلهُ أو أسره ، فبينما أنا جالس فى مجلس قومي بنى مدلج أقبل رَجـل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : ياسرادقة إنى قد رأيت آنفاً أسـودةً بالسـاحل أراها محمداً وأصحابه . قال سراقة : فعرفت أنهم هم . فقلت له : إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانا وفلانً انطلقوا بأعيننا ، ثُمَّ لبثت فى المجلس ساعة . ثمّ قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء أكمـةٍ فتحبسها علىَّ وأخذت بمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجّة الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تُقَرّب بى حـتى دنوت منهم فعثرتْ بى فرسى فخررت عنها فقمت فأهويت يدى إلى كنانـتى فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمتُ بها أضرُهُم أم لا ، فخرجتالذى أكـره ، فركبـت فرسي وعصيت الأزلام تُقَربُ بي حتى إذا سمعت قراءة رسـول الله ﷺ وهو لا يلفت وأبوبكر يكثر الالتفات ، ساختْ يدا فرسي فى

الأرض حـــتى بلغـــتا الركبتين فخررت عنها ، ثُمَّ زجرتُها فنهضت فلم تكد تخـــرج يديهـــا فلمَّا استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثانٌ ساطع فى السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرســـي حتى جئتهم ووقع فى نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن ســـيظهر أمـــر رســـول الله ﷺ فقلـــت له : إنَّ قومك قد جعلوا فيك الدية وأخـــبرتهم أخـــبار مـــا يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يـــرزآنة ولم يسألانى إلا أن قال أخْفِ عنا ، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمر عامر ابن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم ، ثُمَّ مضى رسول الله ﷺ .

قـــال ابن شهاب : فأخبرنى عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقى الزبـــير فى ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رســـول الله ﷺ وأبـــا بكـــر ثياب بيض ، وسمع المسلمون بالمدينة مَخْرَجَ رســـول الله ﷺ مـــن مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرَّة فينتظرونه حتى يـــردهم حَـــرُّ الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلما أوَوْا إلى بـــيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضينَ يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودى أن قـــال بـــأعلى صـــوته : يامعشر العرب ! هذا جدُّكم الذي تنتظرونه . فثار المســـلمون إلـــى الســـلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرَّة فعدل بهم ذات اليميـــن حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأوَّل ، فقام أبوبكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتا فطفق من جاء مـــن الأنصار ممَّن لم ير رسول الله ﷺ يحيّي أبابكر حتى أصابت الشمس رســـول الله ﷺ فأقبل أبوبكر حتى ظلَّل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك

فلبث رسـول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسّسَ المسجد الذي أسّس على التقوى وصلى فيه رسول الله ﷺ ثُمَّ ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة وهـو يصـلي فـيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد ابن زرارَة ، فقال رسول الله ﷺ حتى بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل .

ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجد فقالا : لا بل نهبُهُ لك يارسول الله . ثُمَّ بناه مسجداً وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبـن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن : هذا الحمالُ لا حمَال خيبرْ .. هذا أبرُّ ربَّنا وأطْهَرْ .

ويقول : اللهم إنَّ الأجر أجر الآخرة ، فأرحم الأنصار والمهاجرة . فتمثل بشعرِ رجل من المسلمين لم يسمَّ لي . قال ابن شهاب : ولم يبلغنا في الأحاديث أنَّ رسول الله ﷺ تمثّل ببيت شعر تام غير هذا البيت)[1].

بيـنما كانت قريش تأتمر بمحمد ، وبينما كانت منهمكة في وضع خطـتها الإجرامية ، إذ نزل عليه الوحي ، وأخبره بما يبيت له ، وأمره ألا يـنام فـي فراشه تلك الليلة ، فأرسل إلى عليٍّ وأسرَّ إليه أن ينام في فراشـه ، وأمـره أن يـتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدي عنه الودائع التي كانـت عـنده للناس ، وَعليٌّ خير من يؤدي هذه الودائع إلى أهلها ، ثم يلحـق به . يا للمثل الرائع للأمانة ! العداوات تحيط به من كل جانب ، وحياته معرضة للخطر في كل لحظة ، وبالرغم من ذلك ، يأتمنه الناس علـى أموالهـم ، ولهذا وحده ترك عليا خلفه .وأخبر أبا بكر أن يستعد

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٢٣٠-٢٣٢(٣٩٠٥) .

للرحيل ، فقد جاء أمر الله . وكان أبو بكر جد مشغوف بمصاحبته ، فما أخـبره النبي بالرحيل حتى غامت عيناه بدموع الفرح ، ولكن فيما الفرح والمتاعـب والأخطار تحف بهما من كل جانب ! إنه الفرح بصحبة من يفـتديه بـروحه . وكان أبو بكر قد أعد راحلتين من مدة ، ينتظر الإذن بالرحيل ، فانتظر موافاة محمد لينطلقا .

❁❁❁

محاصرة قريش دار النبي ﷺ

أجتمع فتية قريش وحاصروا دار النبي للبطش به عند خروجه ، فلـيس مـن عادة العرب أن يقتلوا شخصاً في عقر داره ، وكان الفتيان يـنظرون من فرجة إلى مكان نوم النبي ، فيرون رجلاً – وقد كان على فـراش النبي – فيحسبون أن محمدا في فراشه ، وأن فريستهم لن تفلت مـن أيديهم . وجن الليل ، وخرج محمد في رعاية الله الذي رعاه ثلاثة عشـر عاماً ، خرج هادئاً بين أعدائه الذين جاءوا لاغتياله ، وقصد دار أبـي بكـر ، وخرجا من خوخة في ظهر الدار ، وانطلقا إلى غار ثور[1] ، علـى بعد ثلاثة أميال من مكة . ودخل أبو بكر الغار أولاً فنظمه ، وسد الـثقوب التي أمكنه أن يراها في الليل ، ثم دخل النبي و" ثور" و" حراء" غـاران مهمـان في تاريخ الإسلام ، ففي غار حراء نزل الوحي على النبـي ، وفي غار ثور بدأ الإسلام صفحة جديدة . فالهجرة يوم مشهود

---

(١) قـال الحـاكم : تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الاثنين ودخوله المدينة كـان يـوم الاثنين – الزهر الباسم / مخطوط وقال الحافظ ابن حجر للجمع بين هذا وبين من قال إن خروجه كان يوم الخميس . قال : بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس وحروجه من الغار كان ليلة الاثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليال – فتح الباري ٢٣٦/٧.

فــي الإســلام ، وقد اتخذت مبدأ لتاريخ جديد ، هو التاريخ الهجري ، وعلى هذا يمكن القول إن من هذين الغارين خرج الإسلام.

المشركون على الجبل الذي فيه الغار [1]

أرســل الفجر ضوءه ، وقام علي من فراش النبي ، فعقد الدهش ألســنة العداء المتربصين بالنبي ، وانطلقوا يبحثون عنه في كل مكان ؛ وأعدوا الجوائز لمن يعود بالنبي ورفيقه . ووصل جماعة من قصاصي الأثــر حتى باب الغار ، ولما سمع أبو بكر وقع أقدامهم أحس حزنا ثقيلا ، ولا خــوفا علــى حياته ، بل ضناً بحياة غالية ، حياة أغلى من حياته ، حــياة النبــي ﷺ . يــا للحظة الحرجة ، إن سيوف الأعداء متعطشة إلى الــدماء ، إنها لتهتز فوق رأسيهما ، نظرة واحدة داخل الغار فينتهي كل شــئ ، إن أشجع ليرتجف فرقا من هول هذا الموقف ، لقد وطن العدو نفسه على قتلهما ، وهو على قيد أنملة منهما ، والموت فاغر فاه ينتظر فريسته ، ولا قوة على سطح الأرض تحميهما ، وتحول عنهما الموت ، ولكــن النبــي بقي ثابت الجنان ، لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً . إنه يثق في الله ، ويعلم أنه يحميه ، وأنه لن يضيعه أبداً .

خروجه ﷺ من الغار

بقــى النبــي وأبــو بكر في الغار ثلاثة أيام كاملة ، وكان يتردد علــيهما عــبد الله بن أبي بكر ، ويزودهما بالأنباء ، وكانت أسماء بنت أبــي بكــر تأتي إليهما بالطعام ، وكان عامر بن فهيرة يرعى غنم أبي بكــر . فــإذا أمسى الليل اتجه بالغنم صوب الغار فيحتلبان ، وفي اليوم الــرابع سكن الناس عنهما ، وخلت الطريق ، فغادرا الغار ، وأتخذ من

---

(١) البيهقي دلائل النبوة ٤٧٨/٢ .

عـبد الله بـن أريقط – ولم يكن قد أسلم – دليلا لهما ، وانطلقوا صوب يـثرب ، وفي الطريق وقفوا ليستريحوا ، ففرش أبو بكر رداءه ليجلس علـيه النبي ﷺ في ظل شجرة ، وانطلق يبحث عن طعام ، فألقى بدوياً يحلـب شاته ، فتقدم أبو بكر ومسح ثدي الشاة ، وحلبها في قدر نظيفة ، وغطـى القـدر بقطعـة مـن القماش ، فقد كان يعلم حب النبي للنظافة وتمسكه بها ، ثم أتى بالقدر إلى النبي ﷺ .

قصة سُراقة بن مالك [1]

وعـدت قـريش من يقبض على النبي مائة جمل ، فخرج سراقة ابـن مالك ، فيمن خرج للبحث عنه ، وكان سراقة رجل متين البنيان . أخـبره رجل أنه رأى ثلاثة أفراد مروا عليه يعتقد أنهم محمد وصحبه ، فـتدجج سراقة بسلاحه ، وامتطى جواده ، وانطلق في أثرهم ، وكبا به جواده في الطريق ، فضرب القداح مستشيراً الآلهة في استئناف سيره ، فكانـت الآلهـة تشير عليه بعدم السير ، ولكنه ركب جواده وانطلق في أثـره محمـد وصـحبه ، حتى أصبحوا منه على مرمى البصر ، فلكز جـواده ، ولكنه كبا به كبوة شديدة ، وألقى به بعيداً : وقال سراقة عندما كـان يقـص قصته فيما بعد : شعرت عندئذ أنه قد قدر أن تفوز قضية النبـي ، فأقلعـت عـن فكرة اغتياله ، وهتفت : أنا سراقة ابن جعشم . انظرونـي أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شئ تكرهونه . والتفت محمـد وأبو بكر إليه ، فاقترب منهما ، وطلب إلى محمد أن يكتب لـه كـتاباً يكـون آية بينه وبينه ، وكان المداد بين يدي النبي دائماً ، ليدون كـل ما ينزل به الوحي في الحال ، فأمر أبا بكر أن يكتب لـه الكتاب ،

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/٢٣٨– ٢٣٩ الحديث ٣٩٠٦.

تنبأ لسراقة بنبأ سار . فقد أخبره أنه سيأتي يوم يلبس فيه سراقه سوار كسرى عاهل فغارس ، وقد تحقق هذا النبأ العجيب بعد مضي ستة عشر عاماً ؛ فقد تحققت نبوءة دخول إمبراطورية فارس في حيازته في خلافة عمر ، وقد استدعى سراقة عقب سقوط المدائن عاصمة إمبراطورية فارس ، وألبسه سوار آل خسرو . أليس من العجيب أن تتحقق هذه النبوءة ، وأعجب من ذلك أن تصدر من رجل فار هارب !!

كان الوحي مرجع الثبات الذي أبداه النبي طوال هذه الأخطار الداهمة ، فقد كان كثيراً ما ينزل عليه ليطمئنه ويسري عنه ويثبت أقدامه ونزلت آية ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ .. ﴾(٨٥) سورة القصص وهو بين مكة والمدينة ، فكانت مؤاساة أخرى ؛ وقد أعلم النبي من زمن أنه سيغادر مكة ، وأن ضوء الإسلام سينبعث من مكان آخر حتى يغمر العالمين ؛ والقرآن الكريم يفيض بالنبوات عن هذا الموضوع ، لذلك كان النبي ﷺ في أشد الظروف حرجاً ، وعندما يبلغ الضيق منتهاه ، يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الإسلام سينتصر في نهاية الأمر ، ولو كره الكافرون . وقد كانت قصص الأنبياء الذين لاقوا الشدائد والصعاب في أول أمرهم قبل الإيمان برسالتهم ، تنزل على النبي في هذه الآونة الحرجة ، فتواسيه وتشد أزره في محنته ، وقد حدث للنبي أن رأى قبل الهجرة بقليل أنه هاجر إلى مكان غني خصيب ، ولم يكن هذا المكان سوى يثرب التي اشتهرت بوفرة بساتينها .

ميلاد دولة الإسلام بالهجرة

كان نجاح الإسلام مرتبطاً بالهجرة ، وهذا الأمر يعرفه المسلمون الأولون ، ويقدرونه حق قدره ، فهم ينظرون إلى هذا الحادث

الخطير ، نظرتهم إلى ميلاد الإسلام ، فيه أرخوا التاريخ الإسلامي ، ولم يبدأ الإسلام بنزول الوحي للمرة الأولى في غار حراء ، ولكن بدأ يوم هاجر النبي ﷺ . فقد بلغ ضعف النبي منتهاه قبل الهجرة ، وقد أشار القرآن إلى هذا الحادث الجليل ، ووعد بمظاهرة الإسلام ، ونصرة نبيه وإن خذله أهل مكة إبان ضعفه : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾.

كانا في الغار في حماية الله وحده ، وكان أبو بكر يرتعد فزعاً ، ولكن رسول الله ﷺ ظل يطمئنه ويهدئ من روعه ، ويقول له : " لا تحزن إن الله معنا".

وقد كان إيمانه الصادق هو الباعث له على ألا تفلت من بين شفتيه كلمة يأس أو شكوى أو تذمر .

لكن محمداً ﷺ لم يعرف القنوط أو اليأس إلى قلبه سبيلاً ، بل ظل ثابت دواماً ، شجاعاً أبداً مهما تحرجت الظروف ، وساءت الأحوال . إنه في أشد ساعات الهول ، إذ هما في الغار ، والسيوف العطشى إلى الدماء تهتز فوق رأسيهما ، التفت إلى صاحبه في هدوء واطمئنان ، وقال : " لا تحزن إن الله معنا " !

۞۞۞

التغيرات التي طرأت على مكة

ظل النبي ﷺ ثلاثة عشر عاماً يعمل تحت سمع أعدائه من قريش وبصرهم ، وقد تمكن بفضل الله وعونه أن يهدي ثلاثمائة مؤمن ومؤمنة ، إلى الصراط المستقيم ؛ نفث من روحه القوية فيهم ، فأوجد ثلاثمائة روح قوية فتية ، لم تتزعزع ثقتها فيه لحظة ، ووقفت إلى

جانبيه على الرغم مما ذاقت من صنوف العذاب ، وألوان الاضطهاد ، وقد فضلوا ترك الديار وتوديع الأحبة ، وركوب الصعاب على تركه والتخلي عنه .

انتظار أهل المدينة لاستقبال رسول الله ﷺ :

ورد في رواية الحاكم (لما بلغنا مخرج النبى ﷺ كُنا نخرج فنجلس له بظاهر الحرَّة نلجأ إلى ظل المدر حتى تغلبنا عليه الشمس ثُمَّ إلى رحالنا)[1].

(فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم) وفى رواية (حتى إذا كان اليوم الذى جاء فيه جلسنا كما كنا نجلس حتى إذا رجعنا جاء).

(أو فى رجل من يهود) المعنى طلع إلى مكان عال فأشرف منه[2].

عن أنس بن مالك ﷺ قال :(لَمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل فى علو المدينة ..)[3].

قوله :(نزل فى علو المدينة) كل ما فى جهة نجد يُسَمَّى العالية ، وما فى جهة تهامة يُسَمَّى السافلة . وقباء من عوالى المدينة ، وأُخِذَ من نزول النبى ﷺ التفاؤل له ، ولدينه بالعلوّ[4].

(وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل) هذا هو المعتمد . وفى رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب[5] (قدمها لهلال ربيع الأوّل) أى أوّل يوم منه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٩٢/١ .
(٢) فتح الباري ٢٦٠/٧ .
(٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ٢٦٥/٧ (٣٩٣٢) .
(٤) فتح الباري ٢٦٦/٧ .
(٥) البيقهى : دلائل النبوة ٤٩٩/٢ .

وعند الأكثر أنه قدم نهاراً ، وقد وقع رواية مسلم (ليلاً) . ويجمع بأنَّ القدوم كانَ آخر الليل فدخل نهاراً [1].

قوله :(فقام أبوبكر للناس) أي يتلقاهم ، وقوله :(فطفق) أي جعل (مَنْ جاء من الأنصار مِمَّن لم ير رسول الله ﷺ يُحَيِّي أبا بكر) أي يسلِّم عليه ، قال ابن التين : إنَّما كانوا يفعلون ذلك بأبي بكر لكثرة تردده إليهم في التجارة إلى الشام فكانوا يعرفونه ، وأمَّا النبي ﷺ فلم يأتها بعد أنْ كبر أهـ[2]. وظاهر السياق يقتضي أنَّ الذي يُحَيِّي مِمَّن لا يعرف النبي ﷺ يظنه أبا بكر ، فلذلك يبدأ بالسلام عليه ، ويدل عليه قوله في بقية الحديث :(فأقبل أبو بكر يظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ) وقع بيان ذلك في رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب [3] قال : (وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطلق مَن جاء من الأنصار مِمَّن لم يكن رآه يحسبه أبا بكر ، حتى إذا أصابته الشمس أقبل أبو بكر بشئ أظله به) [4].

قوله :(فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة) .

بناء مسجد قباء :

(وأُسِّسَ المسجد الذي أُسِّسَ علىَ التقوى) هو مسجد قباء عن عروة قال : الذين فيهم المسجد الذى أُسِّسَ على التقوى هم بنو عمرو بن عوف [5]. وفي الحديث ابن عباس (ومكث في بني عمرو بن

---

(1) فتح الباري ٧/٢٤٤ .
(2) فتح الباري ٧/٢٤٤ .
(3) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٣٣٩(٣٩٠٦) .
(4) فتح الباري ٧/٢٤٤ .
(5) عبد الرزاق : المصنف ٥/٣٩٦ .

عـوف ثـلاث ليال واتخذ مكانه مسجداً فكان يُصلّي فيه ، ثُمَّ بنو عمرو بن عوف فهو الذى أُسّسَ على التقوى)[1].

واخـتلف في المراد بقوله تعالى ﴿ .. لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ .. ﴾[2] فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء هذا ، وهو ظاهر الآية [3].

وروى مسـلم[4] من طريق عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه : (سـألت رسـول الله ﷺ عن المسجد الذي أُسّسَ على التقوى فقال : هو مسجدكم هذا).

وأخرج أحمد[5] والترمذى[6] من وجه آخر عن أبى سعيد : (اختلف رجـلان فـى المسجد الذي أُسّسَ على التقوى فقال أحدهما : هو مسجد النـبى ﷺ ، وقـال الآخر : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال : هو هذا ، وفى ذلك يعنى مسجد قباء – خير كثير).

قـال الحافظ : ويحتمل أنْ تكون المزية لِمَا اتفق من طول إقامته ﷺ بمسـجد المديـنة بخلاف مسجد قباء فما أقام به إلا أياماً قلائل ، وكفى بهـذا مزية ، والحق أنَّ كُلاًّ منهما أُسّسَ على التقوى ، وقوله تعالى فى بقية الآية ﴿ .. فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا .. ﴾[7].

---

(1) الذهبي : السيرة النبوية صـ٣٢٤ ، فتح البارى ٧/٢٤٤-٢٤٥ .
(2) سورة التوبة من الآية ١٠٨ .
(3) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٢٨١ .
(4) صحيح مسلم بشرح النووى ٩/١٦٨-١٦٩ .
(5) أحمد : المسند ٣/٢٣ .
(6) الترمذى : السنن ٤/٣٤٤ (٥٠٩٧) .
(7) سورة التوبة من الآية ١٠٨ .

دخوله ﷺ المدينة :

(ثم ركب راحلته) ورد عند ابن إسحاق[1] وابن معائذ أنه ركب مـن قـباء يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فقالوا : يارسول الله هلمَّ إلى العدد والعُدَّة والقُوَّة ، انزل بيْن أظهُرِنا .

وصـاروا يتنازعون زمام ناقته . وسمى ممَّن سأله النزول عندهم : عتبان بن مالك في بني سالم ، وفروة بن عمرو في بني بياضة ، وسعد بـن عبادة والمنذر بن عمرو ، وغيرهما في ساعدة ، وأبا سليط وغيره في بني عدى ، يقول لكُلّ منهم : (دعوها فإنها مأمورة) [2].

قال البخارى في "التاريخ الصغير"[3]: حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثـنا "سـليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : (إني لأسعى مـع الغلمـان إذ قالوا : جاء محمد ، فننطلق فلا نرى شيئاً ، حتى أقبل وصـاحبه ، فكمـنا في بعض خرب المدينة وبعثا رجلا من أهل البادية يـؤذن بهما ، فاستقبله زهاء خمسمائة من الأنصار فقالوا : انطلقا آمنين مطاعين) الحديث [4].

قوله :(حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة) (فتنازعه القوم أيُّهم ينزل عليه فقال : إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك).

وذكـر ابن سعد[5] أنَّ أبا أيوب لمَّا نقل رَحْل النبي ﷺ إلى منزله (قـال النـبي ﷺ : المرء مع رَحْلة) ، وأنَّ سعد بن زرارة جاء فأخذ

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٤٩٤/١ .

(٢) فتح الباري ٢٤٥/٧ .

(٣) البيهقي : الدلائل ٥٠٨/٢ .

(٤) فتح الباري ٢٤٥/٧-٢٤٦ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٣٧/١ .

ناقـته فكانـت عنده ، قال : وهذا أثبت . وذكر أيضاً أنَّ مُدَّةَ إقامته ﷺ عند أبي أيوب كانت سبعة أشهر.

وفـي حديث أبي أيوب عند الحاكم وغيره[1](أنَّه أنزَلَ النبي ﷺ فـي أسفل ونزل هو وأهله في العلو ، ثمَّ أشفق من ذلك ، فلم يزل يسأل النبي ﷺ حتى تحوَّل إلى العلو ، ونزل أبو أيوب إلى السفل).

تأسيس المسجد النبوي :

(وكـان) موضـع المسجد (مِرْبداً) بكسر الميم وسكون الراء وفتح الموحدة : هو الموضع الذي يجفف فيه التمر .

وعند ابن إسحاق أنَّ النبي ﷺ سأل : لمنْ هذا ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو لسهيل وسهل ابني عمرو يتيمان لي وسأرضيهما منه[2].

قـوله : (فـي حِجْـر أسعد بن زرارة) وكان أسعد من السابقين إلى الإسلام من الأنصار ، ويكنى أبا أمامة ، ولمَّا أخوه سعد فتأخَّر إسلامه [3].

(فسـاومهما) في رواية ابن عيينة (فكلم عمهما – أي الذي كانا في حِجْرِه – أن يبتاعه منهما فطلبه منهما فقالا : ما تصنع به ؟ فلم يجد بُدّاً من أنْ يصدقهما) [4].

قـولـه :(حتى ابتاعه منهما) ذكر ابن سعد عن الواقدي عن معمر عن الزهري أنَّ النبي ﷺ أمر أبا بكر أن يعطيهما ثمنه قال : وقال غير

---

(1) أبو سعيد : شرف المصطفى خ ورقة ٢٣٨-٢٣٩ ، المستدرك ٣/٤٦١ ، فتح الباري ٧/٢٤٦ .

(2) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٤٩٦ ، فتح الباري ٧/٢٤١ .

(3) فتح الباري ٧/٢٤٦ .

(4) فتح الباري ٧/٢٤٦ .

معمر : أعطاهما عشرة دنانير ذكره موسى بن عقبة عن الزهرى [1].

(فأمـــر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنُبِشَت) (وبالنخل فقطع) (وطفـــق رســـول الله ﷺ) (يـــنقل معهم اللَّبِن) أي الطوب المعمول من الطين الذى لم يُحْرَق .

لقاء عبد الله بن سلام وإسلامه : من حديث أنس [2]:

(عن عبد الله بن سلام قال : لَمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الـــناس إليه ، فجئت في الناس لأنظر إليه – فلمَّا استبنت وجهه عرفت أنَّ وجهه ليس بوجه كذَّاب ..) الحديث [3].

(جاء عبد الله بن سلام) المراد جاء إلى رسول الله ﷺ.

(فقال : أشهد أنَّك رسول الله) زاد فى رواية حميد عن أنس[4]أنه ســـأله عن أشياء . فلما أعلمه بها أسلم ، ولفظه : (فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبى ، ما أول أشرط الساعة ؟ ومـــا أول طعام يأكله أهخل الجنة ؟ وما بال الولد ينز ع إلى أبيه أو إلى أمـــه ؟ فلما ذكر له جواب مسائلة قال : أشهد أنَّك رسول الله ﷺ ، ثمَّ قال : إنَّ اليهود قوم بهت ..) الحديث [5].

وعند البيهقى عن عبد الله بن سلام قال :(سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه ، فكنت مُسِراً لذلك حتى قدم المدينة ، فسمعت به وأنا على رأس نخلة فكبَّرت ، فقالت لى عمتى خالدة بنت الحارث : لو كـــنت سمعت بموسى ما زدت ، فقلت : والله هو أخو موسى ، بُعثَ بما

---

(1) فتح البارى ٢٦٦/٧،٢٤٦ .

(2) صحيح البخارى مع فتح البارى ٢٥٠/٧ (٣٩١١) .

(3) أحمد : المسند ١٥٤/٥ والترمذى ٦٥/٤ الحديث ٢٦٠٣ والحاكم فى المستدرك .

(4) صحيح البخارى مع فتح البارى ٢٧٢/٧ (٣٩٣٨) .

(5) فتح البارى ٢٥٢/٧ .

بُعِثَ بِهِ ، فقالت لي : يا ابن أخي هو الذي كنا نُخْبَر أنه سيُبعَث مع نفس الساعة ؟ قلت : نعم . قالت : فذاك إذاً ، ثُمَّ خرجت إليه فأسلمت ، ثُمَّ جئت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا ، ثُمَّ جئت إلى رسول الله ﷺ فقلت : إنَّ اليهود قوم بهت ...) الحديث [1].

(ولقد علمت يهود أنّي سيّدهم) في رواية :(قال رسول الله إنَّ اليهود قوم بهت) [2].

(بُهُت) (باب إيتان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة) [3].

وروى أبو سعيد في "شرف المصطفى " من طريق سعيد بن جبير: (جاء ميمون بن يامين وكان رأس اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ابعث إليهم فأجعلني حكماً فإنهم يرجعون إليَّ ، فأدخله داخلاً ، ثُمَّ أرسل إليهم فأتوه فخاطبوه ، فقال اختاروا رجلاً يكون حكماً بيني وبينكم ، قالوا : قد رضينا ميمون بن يامين ، فقال : أخرج إليهم : فقال : أشهد أنك رسول الله فأبوه أن يصدقوه .

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، إنَّا نسألك عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بها عرفنا أنك نبي واتبعناك – فذكر الحديث وفيه – أنهم سألوه عما حرَّم إسرائيل على نفسه ، وعن علامة النبوة ، وعن الرعد وصوته ، وكيف تذكر المرأة وتُؤنِّث ، وعمَّن يأتيه بالخبر من السماء ، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه) [4].

---

(١) فتح الباري ٢٥٢/٧ ، ابن هشام ٥١٦/١ – ٥١٧ .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢٧٢/٧ (٣٩٣٨) .

(٣) البيهقي : الدلائل ٥٣٢/٢– ٥٣٣ .

(٤) فتح الباري ١٦٦/٨ ، الواحدي : أسباب نزول القرآن ص ٢٦ .

هجرة آل بيت الرسول ﷺ وآل الصديق ﷺ :

عـن أسـماء رضي الله عنها أنهـا حملـت بعبد الله بن الزبير ،(قالت : فخرجـت وأنا متم ..) [1] ، قوله (وأنا متم) المراد أنها قد أتممت مُدَّة الحمل الغالبة وهي تسعة أشهر ، كما يطلق متم أيضاً علي مَنْ ولدت لتمام .

(فنزلـت بقـباء فولدته بقباء) (ثُمَّ تفل) (ثُمَّ حنكه) المراد وضع فى الـتمرة ودلـك حـنكه بها : (وبرَّك عليه) أى قال : بارك الله فيه : (وكان أوَّل مولـود ولِـدَ فى الإسلام) أى بالمدينة من المهاجرين ، فأما من وُلِدَ بغـير المديـنة مـن المهاجرين فقيل عبد الله بن جعفر بالحبشة ، وأما من الأنصـار بالمدينة فكان أول مولود وُلِدَ لهم بعد الهجرة مسلمة بن مخلد كما رواه ابن أبى شيبة [2]، وقيل : النعمان بن بشير [3].

(ففـرح المسـلمون فـرحاً شـديداً ، لأن الـيهود كانوا يقولون : سحرناهم حتى لا يُولد لهم) [4].

وهــذا يـرده أنَّ هجـرة أسماء وعائشة وغيرهما من آل الصديق كانـت بعـد استقرار النبى ﷺ بالمدينة ، فالمسافة قريبة جداً لا تحتمل تأخر عشرين شهراً ، بل ولا عشرة أشهر [5].

وعك المهاجرين فى أول قدومهم المدينة :

عـن عائشة رضي الله عنها قالت :(لمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة) [6] وفى روايـة أبـى أسـامة عـن هشـام[7] (وهى أوبأ أرض الله) وكان وباؤها

---

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى ٢٤٨/٧ (٣٠٩٠).

(٢) المصنف :٣٤٦/٧ (٣٦٦١٩) .

(٣) فتح البارى ٢٤٨/٧ .

(٤) فتح البارى ٢٤٨/٧-٢٤٩ .

(٥) فتح البارى ٢٤٩/٧ .

(٦) صحي البخارى مع فتح البارى ٢٦٢/٧ (٣٩٢٦) .

(٧) صحيح البخارى مع فتح البارى ٩٩/٤ (١٨٨٩) .

معـــروفاً فـــى الجاهلية ، وكان الإنسان إذا دخلها وأراد أن يسلَم من وبائها قيل له انهق كما ينهق الحمار ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لعمري لئن غنيت من خيفة الردى   نهيق حمار إنني لمروع

يقــول بلال : (اللهم العن عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأمية بــن خلف ، كما أخرجونا إلى أرض الوباء) ثُمَّ قال رسول الله ﷺ (اللهم حبّب إلينا المدينة ..) الحديث [1].

عــن عروة عن عائشة عقب قول أبيها (فقلت : والله ما يدرى أبى مــا يقــول) قالت : (ثمَّ دنوت إلى عامر بن فهيرة – وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب – فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ قال :

لَقدْ وجَدْتُ المَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ   إنَّ الجبانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

كُلُّ امْرِئٍ مُجاهِدٌ بِطَوْقِهِ   كالثَّوْرِ يَحْمِي جِسْمَهُ بِرَوْقِهِ

وقالــت فـــى آخره :(فقلت : يا رسول الله إنّهم ليهذون وما يعقلون من شدّة الحُمّى) [2].

شراء عثمان ﷺ لبئر رومة :

عــن أبـــى عبد الرحمن (أنَّ عثمان ﷺ حين حوصر أشرف عليهم وقـــال أنشـــدكم الله ، ولا أنشـــد إلاَّ أصحاب النبى ﷺ : ألستم تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ قال : مَنْ حفر رومة فله الجنة ..) [3].

روى الـــبغوى فـــى " الصحابة " من طريق بشر بن بشير الأسلمى عــن أبـــيه قال : (لمَّا قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء وكانت لرجل

---

(١) فتح البارى ٢٦٣/٧ .

(٢) ابن هشام ٥٨٨/١-٥٨٩ .

(٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ٤٠٦/٥ – ٤٠٧ (٢٧٧٨) .

من بنى غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القربة بمُدّ فقال له النبى ﷺ : تبيعينها بعين فى الجنة ؟ فقال : يارسول الله ليس لى ولا لعيالى وغيرها فبلغ ذلك عثمان ﷺ فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم ، ثُمَّ أتى النبى ﷺ فقال : أتجعل لي فيها ما جعلت له ؟ قال : نعم . قال : قد جعلتها للمسلمين)[١].

وإنْ كانت أولاً عيناً فلا مانع أنْ يحفر فيها عثمان بئراً ، ولعل العين كانت تجرى إلى بئر فوسعها وطواها فنسب حفرها إليه[٢].

إن هذا التحول العظيم المعجز الذي تم على يديه في هذا المدى القصير من الوقت – ١٣ عاماً – على الرغم من مقاومة الأمة كلها له ، لهو عمل يستحق كل تقدير وتعظيم ، وقد قدر هذا الانقلاب العظيم حق قدره أحد المستشرقين " وليم موبير" فكتب عن الصحابة يقول : "في وقت قصير كهذا ، انقسمت مكة حزبين متعادلينْ بسبب ما جاء به محمد ، فانمحت الفوارق القديمة الأصل الموروثة ، فواصل العصبية والقبلية ، وأصبح هناك مؤمن وغير مؤمن ، وكان المؤمنون يتحملون صنوف الأذى والاضطهاد بصبر عجيب[٣]، مفضلين الأذى على الارتداد عن دينهم العزيز ، لقد تركوا الديار والخلان والأموال ويمموا شطر الحبشة حتى تمر العاصفة ، ثم تركوا مع النبي بلدهم الذي

---

(١) البغوى : معجم الصحابة ، مخطوط مصور برقم ٧٩١ ورقة ٤١- ٤٢ .

(٢) فتح البارى ٥/٤٠٧ – ٤٠٨ ، وبئر رومة تقع الآن فى منطقة الزراعة فى آخر طريق أبى بكر الصديق فى حي الأزهر على اليمين للمتوجه إلى الجامعة الإسلامية .

(٣) ذكر البخاري في صحيحه بابا لذلك هو " باب ما لقى النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة " فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/٤٣١ " .

يحـــبونه حـــتى الجنون ، بلدهم المقدس ، مكة المكرمة ، وإن بلدهم في نظــرهم لهــو أقــدس مكان في الوجود ، تركوا كل هذا وهاجروا إلى المديــنة ، وهناك حدث نفس الشيء المدهش العجيب مرة أخرى ، فآخى النبــي ﷺ بيــن أصحابه ليذهب عنهم وحشَةَ الغُربَة [1] واستطاع ﷺ أن يبــث فــيهم من الروح ما يجعلهم على استعداد لبذل دمائهم للدفاع عن النبــي ومــن معه عن طيب خاطر ؛ لقد كانت تعاليم اليهود قد رقت في آذان أهل يثرب من زمن بعيد ، ولكن سمعوا ما جاء به النبي العربي ، ومــا أحسوا لمحات من عقليته ونفسيته ، حتى انتشت عقولهم ، فصحت وعادت إلى الحياة من جديد ، ويمكن وصف ما أصبحوا فيه بهذه الآية:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ .

هــذه الآية ومئات أخرى غيرها من الآيات تصور ما كان عليه صــحابة النبي من حميد الخصال : إنها القوة المعنوية الكامنة في صدر رجــل واحــد هي التي أحدثت هذا التبدل المعجز في زمن قصير يدعو إلى الدهش وعدم التصديق .

لقــد رفــع مــئات مــن الناس الذين يتقلبون في حمأة الرذيلة ، ويعتقدون في الخزعبلات ، ويسفون إلى أحط درجات الوثنية ، إلى قمم الفضــيلة ، لقــد حطــم قيود العادات القبيحة التي كانت تكبلهم ، وأطلق إســارهم ، ورفعهــم من عالمهم المنحط إلى عالم رفيع ، لقد نفث فيهم حــياة جديدة ، وعلمهم الحق والفضيلة ، وإسداء المعروف إلى الناس ،

---

(١) باب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فتح الباري ٧/ ١١٠.

وجعلهم يستمسكون بهذه القواعد الفاضلة ، ولا يفرطون فيها مهما لاقوا فـي سبيلها ، لقد نفخ فيهم روح الكرامة الإنسانية وتقدير المسئولية ، إن محمداً على التحقيق لأكبر مصلح عرفته الإنسانية .

❊❊❊

هجرة النبي ﷺ إلى المدينة [1]

أتـم النبـي وصحبه الرحلة إلى المدينة في ثمانية أيام ، وهي تتم عـادة في أحد عشر يوماً ، فوصلوها في الثاني عشر من ربيع الأول ، الموافق ٢٨ من يونيه سنة ٦٢٢ ميلادية ، وبعد أن مضى على الإسلام أربعة عشر عاماً ، وقد انتهى إلى المدينة خبر خروجه من مكة ، ولكن لـم يعـرف أحد قصة اختفائه في الغار مدة ثلاثة أيام ، وكانت المدينة تـتحرق شوقاً لمقدمه ، فكان الناس يخرجون في صبيحة كل يوم لمدى عـدة أميال في طريق مكة ، في انتظار النبي الهادي ، وانتهت ساعات الانـتظار القاسية ، وظهر الزائر الكريم عند أرباض المدينة . فعلى بعد أمـيال ثلاثـة من المدينة تقع قباء ، وهي من ضواحي يثرب ، ويسكنها عـدد من الأنصار ، وأشهر بيت بها بيت عمرو بن عوف ، فدعا النبي ﷺ ، وقـبل النبـي دعوته قبل دخوله المدينة ، ونزل بقباء ، ونزل بها أيضـاً بعض المهاجرين ، وأقبل الناس زمراً إليها لاستقبال نبيهم العظيم ، ومكـث النبي بينهم بِضْعَ عَشْرة ليلة . ولَحقَ به عَلِيٌّ هُنَاك ، وبَنَى النبيُّ ﷺ مَسْجداً ، وهو المسجد الذي يشير القرآن إليه بأنه المسجد الذي أُسس علـى التقوى ، وعمل النبي ﷺ في بناء المسجد بيديه ، وراح المسلمون ، والمهاجـرون والأنصار، يشاركونه في بنائه حتى أتموه . ثم دخل النبي

---

(١) حديـث هجـرة النبـي ﷺ " مطولاً " في صحيح البخاري عن عائشة " فتح الباري ٧/٢٣٠- ٢٣٢ رقم ٣٩٠٥ .

يــثرب ، وقــد ازدانت ولبست حلة قشيبة ، فانجفل الناس إليه لتحيته ، وكــانوا متحليــن بــأجمل ثيابهم. واعتلت النساء الدور ، ورحن ينشدن للضــيف الكــريم ، وانطلــق النبي على ناقته القصواء والناس معه عن يميــنه وشماله ، فاعترضه الأنصار لا يمر بدار من دورهم إلا قالوا : هلم يا نبي الله إلى القوة والمنعة والثروة . فيقول لهم خيراً ، ويدعو لهم ويقــول : " إنهــا مــأمورة ، فخلوا سبيلها " وانطلقت الناقة حتى بلغت مربداً أمام دار أبي أيوب فوقفت .

۞۞۞

مسجد النبي ﷺ

بركــت ناقــة النبي ﷺ على مربد لغلامين يتيمين في حِجْرِ أسعد بــن زُرارَةَ فشاءا أن يقدماه هدية إلى النبي ، ولكنه ابتاعه منهما ليبني مســجداً له ، وعمــل محمد ﷺ وصحبه في بناء المسجد ، وكانوا جميعاً يشعرون بالغبطة وهم يعلمون ، وراحوا ينشدون :

اللهـم إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان النبي ﷺ ينقل معهم اللَّبِن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللَّبِنَ :

هذا الحِمَالُ لا حِمَالُ خَيْبَرْ   هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

ويقول ﷺ أيضاً :

اللهــم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة [1] وأُقيم المســجد ، فكــان فناء واسعاً بنيت جدرانه الأربعة من الآجر ، وسقف جــزء مــنه بســعف النخل ، وترك الجزء الآخر مكشوفاً ، وخصصت

---

(١) قــال ابن شهاب : ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت " راجع فتح الباري ٧/٢٣٠- ٢٣٢ الحديث رقم ٣٩٠٥.

إحـــدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون سكناً ، وعرف من نــزلوا فــيها بأهل الصفّة ، وكانت بمثابة مدرسة ملحقة بالمسجد ، فقد كـــانوا طـــوال وقـــتهم يتدارسون دينهم ، وأقيمت حول المسجد مساكن الرسول ﷺ .

❁❁❁

مشروعية الأذان

كـــان المسلمون بمكة لا يستطيعون الأذان للصلاة جهراً ، ولكن تـــبدل الحـــال في المدينة ، واستتب الأمر للمسلمين ، ففكروا في وسيلة تجمعهـــم للصلاة ، واقترح الناقوس ، ولكن حدث أن رأى عمر رؤيا ، رأى رجـــلاً ينادي : " الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر ! أشهد أن لا إلـــه إلا الله ، أشـــهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشـــهد أن محمـــداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حـــي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر ! الله أكبر ! لا إله إلا الله " فقـــص ما رأى على النبي ﷺ في صبيحة اليوم الثاني ، وحدث أن رأى صـــحابي آخـــر نفس الرؤيا ، وهو عبد الله بن زيد بن عبد ربه . وقال الرســـــول ﷺ :" يا بلال قم نظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد فافعله " قال : فأذن بلال .[1]

وأقيمـــت صـــلاة الجمعة جماعة لأول مرة ، يوم أن غادر النبي قباء ودخل المدينة .

❁❁❁

---

(1) رواه أبـــو داود في سننه كتاب الصلاة / باب بدء الأذان حديث رقم ٤٩٨ - ٤٩٩ إلى رقم ٥٠٥ وأيضاً أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما .

الأخوة الإسلامية

انتهت مسألة الأذان ، فاهتم النبي ﷺ بأمر المهاجرين ، وكان جلهم يعيش بمكة في بحبوحة من العيش ، فلما غادروها مخلفين ديارهم وأموالهم ، آخى النبي بينهم وبين الأنصار ، إخاءاً فريداً في تاريخ العالم ، إخاء وفاء وإخلاص ، فقد كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الأخوة بآخر من الأنصار ، فكان لكل من الأنصار أخ من المهاجرين ، يشاطره داره وماله وإبله وتجارته ، وقد كان الأنصار أصحاب زراعة ، فعرضوا على المهاجرين مشاطرتهم مزارعهم أيضاً ، ولكن المهاجرين أهل تجارة ، ولا عهد لهم بالزراعة.

فلما علم الأنصار ذلك ، أصروا على زراعة الأرض بأنفسهم ، وقسموا المحصول فيما بينهم ، وبالاختصار قد كانت روابط الأخوة الجديدة أوثق مما كانت أخوة حقيقة يربطها الدم ، وكان إذا توفى أحدهم يرثه أخوه في العقيدة لا شقيقة ، ثم حرم القرآن ذلك ، وأمر أن يبقى الميراث في الأسرة : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾ .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار: [1]

كانت المؤاخاة مرتين ، مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة قبل الهجرة ، وهي على المواساة والمناصرة ، وكان من ذلك أخوة زيد بن حارثة وحمزة بن عبد المطلب[2] ، ومرة بين المهاجرين والأنصار بعد أن هاجر ، وذلك بعد قدومه المدينة [3] .

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/ ٢١٠.

(٢) ابن عبد البر : الدرر ص ٨٦ ، فتح الباري٤/ ٢٠٦ .

(٣) الطبقات ١/ ٢٣٨ .

بناء الرسول ﷺ بعائشة ﵂ :

عن عائشة ﵂ قالت : " تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين ..)[1] المـــراد عقد عليها ، وقولها : " فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج " أي فلما قدمت هي وأمها وأختها أسماء بنت أبي بكر وأما أبوها فقد قَدِمَ قبل ذلك مع النبي ﷺ .

(فتمزق شعري) أي تقطع ، ثم فصلت من الوعك فتربى شعري فكـــثر ، (جميمة) وهي مجتمع شعر الناصية ، وروي أحمد هذه القصة مطـــولاً (قالـــت عائشـــة : قدمنا المدينة فنولنا في بني الحارث ، فجاء رســـول الله ﷺ فدخـــل بيتـــنا ، فجاءت بي أمي وأنا في أرجوحة ولي جمـــيمة ، ففرقـــتها ، ومســـحت وجهـــي بشيء من ماء ، ثم أقبلت بي تقودنـــي حتى وقفت بي عند الباب حتى سكن نفسي ....) الحديث وفيه (فـــإذا رســـول الله ﷺ جـــالس علـــى سريره وعنده رجال ونساء من الأنصار ، فأجلستني في حجره ، ثم قالت : هؤلاء أهلك يا رسول الله ، بـــارك الله لك فيهم ، فوثب الرجال والنساء وبنى بي رسول الله ﷺ في بيتنا وأنا يومئذ بنت تسع سنين) [2].

وروي أحمـــد[3] والطبراني[4] بإسناد عن عائشة قالت : (لما توفيت خديجـــة قالت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون : يا رسول الله ألا تـــزوج ؟ قال نعم ، فما عندك ؟ قالت : بكر وثيب ، البكر بنت أحب خلق الله إلـــيك عائشة ، والثيب سودة بنت زمعة ، قال : فاذهبي فاذكريهما علىّ

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٢٢٣ .

(٢) المسند ٦/٢١١، المستدرك مع التلخيص ٢/١٦٧، فتح الباري ٧/٢٢٤.

(٣) المسند ٦/٢١٠- ٢١١.

(٤) المعجم الكبير ٢٣/٢٣ - ٢٤ (٥٧).

فدخلت على أبي بكر فقال : إنما هي بنت أخية ، قال : قولي له أنت أخي في الإسلام ، وابنتك تصلح لي ، فجاءه فأنكحه ، ثم دخلت على سودة فقالت لها : أخبري أبي ، فذكرت له ، فزوجه) .

فضائل المدينة وحرمها :

عن عبد الله بن زيد ﷺ عن النبي ﷺ (إن إبراهيم حرَّم مكة ودعا لها...) [1]

عن أنس بن مالك ﷺ ان رسول الله ﷺ قال : " اللهم بارك لهم في مكيالهم ...) [2]

المدينة علم على البلدة المعروفة التي هاجر إليها النبي ﷺ ودُفِنَ بِهَا . قال الله تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾[3] فإذا أُطْلِقَت تبادر إلى الفهم أنها المراد ، وإذا أُريد غيرها بلفظ المدينة فلابُد من قيد ، فهي كالنجم للثريا ، وكان اسمها قبل ذلك يثرب ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾[4] ، ويثرب اسم لموضع منها سُمّيت كلها به ، وقيل : سميت بيثرب بن قانية ابن مهلائيل بن عيل بن عيص ، من ولد إرم بن سام بن نوح لأنه أول من نزلها من العرب ، ونزل أخوه خيبور فسميت به ، وقيل غير ذلك [5]، ثم سماها النبي ﷺ طيبة و طابة كما ورد في باب مفرد [6] .

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٤٦/٤ (٢١٢٩).
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٤٧/٤ (٢١٣٠).
(٣) المنافقون (٨).
(٤) الأحزاب (١٣).
(٥) فتح الباري ٨١/٤- ٨٢ ، ٨٨.
(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري ٨٨/٤ باب المدينة طابة ..

عصمتها من الدجال :

عــن أبــي بكر ﷺ عن النبي ﷺ قال : " لا يدخل المدينة رعب المســيح الدجــال.. "[1] عــن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "على أنقاب المدينة ملائكة ... " [2]

(أَنْقَــاب) جمع نَقَب وفي حديث أنس وأبي سعيد (على نقابها) [3] جمــع نَقْب ، المراد بها المداخل [4] ، وقيل : الأبواب ، وقيل : الأنقاب الطرق التي يسلكها الناس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ [5]

(لا يدخلهــا الطاعون ولا الدجال) عن انس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : " ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة...) [6]

الغزوات والسرايا قبل بدر

١- الأبواء (ودّان) :

قــال ابن إسحاق : (أوّل ما غزا النبي ﷺ الأبواء ، ثُمَّ بواط ، ثم العشيرة) [7]

الأبــواء[8] – قــرية من عمل الفرع بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً ، قيل : سُميت بذلك لما كان فيها من الوباء .

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٩٥/٤ (١٨٧٩) .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٩٥/٤ (١٨٨٠).

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٩٥/٤ – ٩٦ (١٨٨١) ، وحديث أبي سعيد (١٨٨٢).

(٤) نقله الزرقاني في شرح موطأ مالك ٢٣٢/٤.

(٥) سورة ق (٣٦) ، فتح الباري ٩٦/٤ ، النهاية ١٠١/٥.

(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري ٩٥/٤ (١٨٨١).

(٧) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢٧٩/٧.

(٨) البكري : معجم ما استعجم ١٠٢/١.

غزوة ودان : وهي أول غزوات النبي ﷺ ، خرج من المدينة على رأس اثنـــي عشر شهراً من مقدمة المدينة يريد قريشاً ، فوداع بني ضمرة بن بكـــر بن عبد مناة من كنانة ، وادعه رئيسهم مجدي بن عمرو الضمري ، ورجع بغير قتال [١]

وكان قد استعمل على المدينة سعد بن عبادة [٢] .اهـــ.

ولـــيس بين ما وقع في " السيرة " وبين ما نقله البخاري عن ابن إسحاق اختلاف لأن الأبواء وودان مكانان متقاربان بينهما ستة اميال أو ثمانية .

٢- **بُواط** : بُـــواط – جبل من جبال جهينة ينبع [٣] . قال ابن إسحاق : ثم غـــزا فـــي شهر ربيع الأول يريد قريشاً أيضاً حتى بلغ بُواط من ناحية رَضْـــوى ورجـــع ولم يلق أحداً [٤] . ورضوى وسكون : جبل مشهور عظـــيم بينـــبع[٥]. قال ابن هشام : وكان استعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون[٦] .

٣- **العشيرة** :

العشـــيرة لم يختلف أهل المغازي على أنها بالمعجمة والتصغير وآخـــرها هـــاء . قـــال ابن إسحاق : هي ببطن ينبع [٧] وخرج إليها في جمادى الأولى يريد قريشاً أيضاً ، فوداع بني مدلج من كنانة [٨] .

---

(١) ابن هشام : ١/٥٩٠- ٥٩١ .

(٢) المصدر السابق ١/٥٩١ ، البداية والنهاية ٣/٢٤٢.

(٣) البكري : معجم ما استعجم ١/٢٨٣ ، ١٥٤ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٥٩٨ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ٣/٥١ .

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٥٩٨ .

(٧) البكري معجم ما استعجم ٣/٩٤٥.

(٨) ابن هشام ١/٥٩٩.

وذكــر الواقدي : أن هذه السفرات الثلاث كان يخرج فيها ليلتقي تجـار قـريش حين يمرون إلى لشام ذهاباً وإياباً[1] ، وسبب ذلك أيضاً أنها كانت وقعة بدر وكذلك السرايا التي بعثها قبل بدر [2].

والعشـيرة : مكانها عند منزل الحج بينبع ، ليس بينها وبين البلد إلا الطـريق ، وخرج في خمسين ومائه ، وقيل مائتين . واستخلف فيها أبا سلمة بن عبد الأسد [3].

بدر الأولى :

قـال ابن إسحاق : ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يقم إلاَّ ليالي حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة ، فخرج النبي ﷺ فـي طلـبه حتى بلغ سَفَوان [4] -بفتح المهملة والفاء - من ناحية بدر ، ففاته كرز بن جابر ، وهذه هي بدر الأولى [5] .

سرية نخل :

ورد فـي " كتاب العلم " قصة سرية عبد الله بن جحش وأنه ومن معـه لقـوا ناسـاً من قريش راجعين بتجارة من الشام قاتلوهم ، واتفق وقـوع ذلـك فـي رجب ، فقتلوا منهم وأسروا واخذوا الذي كان معهم وكـان أول قتل وقع في الإسلام ، وأوّل مال غنم وممن قُتل عبد الله بن الخضـرمي أخـو عمر بن الخضرمي الذي حرض به أبو جهل قريشاً على القتال ببدر [6].

---

(1) الواقدي : المغازي ١/١٢ -١٣ .

(2) فتح الباري ٧/٢٨٠.

(3) فتح الباري ٧/٢٧٩.

(4) البكري : معجم ما استعجم ٣/٧٤٠.

(5) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٦٠٢ ، فتح الباري ٧/٢٨٠ .

(6) فتح الباري ١/١٥٥ ، ٧/٢٨٠، السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٠١.

وأمـير السـرية اسمه عبد الله بن جحش الأسدي أخو زينب أم المؤمنين ، وكان تأميره في السنة الثانية قبل وقعة بدر .

والسـرية - بفـتح المهملة وكسر الراء وتشديد الياء التحتانية : القطعة من الجيش [1]، وكانوا اثني عشر رجلاً من المهاجرين [2].

قولـه : (حتى تبلغ مكان كذا وكذا) ورد هكذا في حديث جندب علـى الإبهام [3]،وفي رواية عروة أنه قال له : (إذا سرت يومين فافتح الكـتاب) قال : ففتحه هناك فإذا فيه : (أن امض حتى تنزل نخلة فتأتينا مـن أخـبار قريش ، ولا تستكرهن أحداً) [4]. وفي حديث جندب : فـرجع رجـلان ومضى الباقون فلقوا عمرو بن الحضرمي ومعه عير لقـريش فقتلوه ، فكان أول مقتول من الكفار في الإسلام ، وذلك في أول يـوم رجب ، وغنموا ما كان معهم فكانت أول غنيمة في الإسلام فعاب علـيهم المشـركون ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [5]

عدد غزوات النبي ﷺ :

عـن أبي إسحاق قال : (سألت زيد بن أرقم ﷺ : كم غزوت مع رسول الله ﷺ ؟ قال : سبع عشرة...).

عن البراء ﷺ قال : (غزوت مع النبي ﷺ خمس عشرة) .

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٤٦٣/٢ ، تهذيب اللغة ٥٤/١٣ .
(٢) البداية والنهاية ٢٤٨/٣ ، المغازي للواقدي ١٩/١ .
(٣) الطبراني : المعجم الكبير ١٦٢/٢ (١٦٧٠) ، فتح الباري ١٥٥/١.
(٤) ابن هشام : ٦٠٢/١.
(٥) البقرة (٢١٨) ، الطبراني : المعجم الكبير ١٦٣/٢ ، فتح الباري ١٥٥/١.

عـن ابـن بريدة عن أبيه قال : (غزا مع رسول الله ﷺ عشرة غزوة) [1].

قولـه (باب كم غزا النبي ﷺ) ختم البخاري " كتاب المغازي " بـنحو مـا ابـتدأ بـه ، وزاد هنا عن أبي إسحاق حديث البراء قال : (غـزوت مـع النبـي ﷺ خمـس عشرة غزوة) وكأن أبا إسحاق كان حريصـاً على معرفة عدد غزوات النبي ﷺ فسأل زيد بن أرقم والبراء وغيرهما [2].

قولـه : (قـال غـزا مع رسول الله ست عشرة غزوة) أخرج مسـلم من وجه آخر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أنه غزا مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة قاتل منها في ثمان [3].

والسـرايا تقرب من سبعين ، وقد استوعبها محمد بن سعد في " الطبقات " [4].

وقـرأت بخـط مغلطاي أنَّ مجموع الغزوات والسرايا مائه [5] فوجدته كما قال[6].

عـن أبي إسحاق قال : كنت لإلى جنب زيد بن أرقم ، فقيل له : (كم غزا النبي ﷺ ؟ قال : تسع عشرة . قال : كم غزوت أنت معه ؟ ..) [7].

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ١٥٣/٨ (٤٤٧١- ٤٤٧٣).
(٢) فتح الباري ١٥٣/٨ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٩٦/١٢.
(٤) الطبقات الكبرى ٥/٢- ٦.
(٥) مغلطاي : الزهر الباسم ، القسم الثاني ، ورقة (٣٣٨) .
(٦) فتح الباري ١٥٣/٧- ١٥٤.
(٧) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢٧٩/٧ (٣٩٤٩) .

وقولــه : (تسع عشرة) مراده الغزوات التي خرج النبي ﷺ فيها بنفسه سواء قاتل أو لم يقاتل .

قـال موســى بن عقبة : (قاتل رسول الله ﷺ بنفسه في ثمان : بـدر ، ثـم أحد ، ثم الأحزاب ، ثم المصطلق ، ثم خيبر ، ثم مكة ، ثم حنين ، ثم الطائف ...) [1]

وأهمـل غزوة قريظة لأنه ضمها إلى الأحزاب لكونها كانت في أثرها .

الإيثار وازدهار تجارة المهاجرين

كانـت هـذه عواطف الأنصار نحو إخوانهم المهاجرين ، ولكن المهاجريـن لم يستغلوا هذا العطف ، فعندما عرض سعد بن الربيع على عبد الرحمن بن عوف أن يشاطره ماله ، أبى عبد الرحمن ، وطلب إليه أن يدلـه علـى السـوق ، وهو ضمين بكسب ما يقيم أوده ، واستطاع بمهارتـه التجارية أن يصل إلى الثروة في زمن قصير ، واشتغل بعض المهاجرين بالتجارة أيضاً ، ومن لم يكن في يده مال كان يجهد نفسه في العمـل أشد إجهاد ، حتى لا يكون عبئاً على غيره ، وقد عاونوا جميعاً فـي جمع المال لبيت المال ، ليصرف في الوجوه العامة ، وما انقضى وقـت طويـل حتى ازدهرت تجارة المهاجرين ، حتى إن عير بعضهم كانـت تـتألف من ٧٠٠ ناقة . وقد أتى على المسلمين حين من الدهر عسـير ؛ روي أنـه قدم على النبي ضيف ، ولم يكن في داره طعام ، فطلـب من أبي طلحة أحد الصحابة أن يقوم عنه في أداء هذا الواجب ، فلمـا دخـل أبو طلحة داره ومعه ضيف النبي لم يجد في الدار ، إلا ما

---

(١) البداية والنهاية ٣/٢٤١.

يكفى أولاده ، ومع هذا قدم إلى الضيف كل ما في الدار ، وجلس أبو طلحة وزوجته إلى الطعام ولا يأكلان ، وقضيت الأسرة يومها بلا طعام وانقضت أيام البؤس هذه بفضل جهد المسلمين ، فانقلب الفقر غني ، والضيق يسراً ، وأصبحت الحياة هانئة سعيدة ؛ وعلى الرغم من هذا التبديل ، لم تتبدل أخلاق المسلمين ، بل كانت دوماً تدعو إلى الإعجاب ، فما داخلهم اليأس أيام الشدة . وما استخفهم الفرح في أيام الرخاء ، بل كانوا ينفقون أموالهم في سبيل الله ، وللفقراء وأبناء السبيل ، والنازلين بالمسجد من أهل الصفة ، ممن يقضون نهارهم في تحصيل دينهم ، وليلهم في الصلاة والتسبيح ؛ ومن هؤلاء خرج جماعة الفقهاء الذين رفعوا منار الإسلام ، فشع نوره ، وانتشر حتى غمر العالمين ، وإن أبا هريرة الذي نقل كثير من أحاديث رسول أحدهم ، ولم يكن أهل الصفة من الأغنياء ، ولا ممن يتكسبون معاشهم ، فكان أغنياء المسلمين يدعونهم لتناول الطعام معهم .

موادعة اليهود

مما عنى به النبي بعد أن اطمأن بهذه المؤاخاة إلى وحدة المسلمين هو تحقيق وحدة يثرب ، وإقامة روابط الألفة والصداقة بين مختلف القبائل ؛ فقد كان اليهود بها قوة لا يستهان بها ، وقد اعتادوا أن يتحالفوا مع قبائل الأوس والخزرج ؛ وأن يشتركوا في الحرب التي نشبت بين القبيلتين ، وكان اليهود منقسمين إلى قبائل ثلاث : بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظه . فكان بنو قريظة حلفاء الأوس . وكان بنو النضير حلفاء الخزرج ، ولكن بعد أن شمل الأوس والخزرج الإسلام أصبحوا إخواناً ، فرأى محمد أن يوحد بينهم وبين اليهود ، فكتب بين

المهاجريـــن والأنصار كتاباً ودعا اليهود وعاهدهم . وهذا الكتاب يقرر أن : " المؤمنيـــن والمســـلمين مـــن قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجـــاهد معهم أمة واحدة من دون الناس ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعـــروف والقســـط بيـــن المؤمنين ، وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بيـــنهم – المفرح المثقل بالدين والعيال – أن يعطوه بالمعروف في فِداء أو عقـــل ، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين علـــى من بغى أو ابتغى دسيعة – أي عظيمة – ظلم أو إثم أو عدوان أو فســـاد بيـــن المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً . ولو كان والد أحدهم ، ولا يقـــتل مؤمـــن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمـــة الله واحـــدة ، يجـــير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعـــض دون الناس ... وإن من اتبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غـــير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن اليهود ينفقون مع المسلمين ما دامـــوا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمســـلمين دينهم ، ويهود بني النجار ، وبني الحارث ، وبني ساعدة ، وبنـــي جشم ، وبين ثعلبة ، وبني الأوس ومواليهم وبطانتهم كبني عوف ســـواء ، وإن علـــى اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نَفَقَتَهُم ، وإن بينهم النصـــر علـــى من حارب أهل هذه الصحيفة ، وبينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، واليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يـــثرب حـــرام جوفهـــا لأهـــل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفيس غير مضـــار ولا آثم ، ولا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، ولا تجار قريش ولا مـــن نصـــرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صـــلح يصـــالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنه ما كان

بيـــن أهل هذه الصحيفة من حدث أو أشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله ، وإلى محمد رسول الله " . [1]

❁❁❁

مرحلة ما قبل غزوة بدر الكبرى

استـــقر المقام بالمسلمين في المدينة ، وراحوا يؤدون شعائر دينهم ، لا يَأذَوْن ولا يُؤذُون ، وأقيمت المساجد ، وأُذن للصلاة ، ولكن هل خمد العـــداء للإســـلام وانتهى كل شيء ؟ لا والله لقد كان المسلمون يؤدون شـــعائرهم في المدينة وادعين آمنين ، وكانت نار البغضاء للإسلام تعتل في صدور أهل مكة .

إن قريشـــاً لم يهدأ لها بال عندما هاجرت فئة قليلة من المسلمين إلـــى الحبشـــة ، فلم تتركهم في هجرتهم وادعين ، بل تعقبتهم حتى بلاط النجاشـــي ، محاولة إبادتهم ، فهل تترك المسلمين وشأنهم في المدينة بعد أن طاب المقام للنبي ﷺ وصحبه ، وأخذوا نفوذهم في الانتشار ؟

✡✡✡

الترَقب خوفا من مهاجمة قريش للمدينة

كـــان لعبد الله بن أبي سلول نفوذ كبير بالمدينة ، فهو من البارزة .وقـــد فكر أهل المدينة قبل هجرة النبي ، في تنصيبه ملكاً عليهم ، فلما قـــدم الرســـول إلـــى يثرب تضاءلت شخصية ابن أبيّ ، وضاعت منه الفرصـــة ، فحـــنق على المسلمين ، واتخذ موقفاً عدائياً إزاء الإسلام . لذلـــك اســـتعدته قـــريش عليهم ، وحرضته على إخراجهم ، ولكن كان

---

(١) راجـــع ابن هشام ١/٥٠١ – ٥٠٤ – فتح الباري ٧/٣٢٩، ٤٠٧ ، أبو نعيم فـــي دلائل النبوة ١/٨٠(٤٠) ، الروض الأنف ٢/٢٩١– ٢٩٢ ، البيهقي في دلائل النبوة ٢/٢٧٦.

أغلب قبيلته قد دخل في الإسلام ، فأصبح من العسير عليه مقاومته النبي ، فخاب رجاء قريش فيه ، وراحت تحرض العرب القاطنين بين مكة والمدينة ؛ ولما كانت قريش تقوم بحراسة البيت الحرام ، كانت موضع التجلة والاحترام من العرب أجمعين ، وكانت ذات نفوذ وسلطان ، فرأى المسلمون أنفسهم يحيط بهم الأعداء من كل جانب ، بل كان في الداخل أعداء يتربصون بالمسلمين الدوائر ، كعبد الله بن أُبيّ ، لذلك كان على المسلمون حيطة وحذر دائماً ، يترقبون الانقباض عليهم في أية لحظة من الخارج ، ويتحرزون من الخيانة في الداخل .

۞۞۞

الأمر بالقتال دفاعاً عن النفس

اعتاد بعض السرايا من قريش الخروج لقطع الطريق ، والضرب في الصحراء حتى ضواحي المدينة ، وحدث يوماً أن سرية من هذه السرايا سلبت بعض الإبل من مراعي المدينة ؛ والحق أنهم منذ الهجرة كانوا يتحينون الفرص للقضاء على الإسلام بحد السيف ، فتجهزوا للإغارة على المدينة ، وكان الحال يتطلب اليقظة والسهر من جانب المسلمين ، ونزل الوحي بإباحة القتال للدفاع عن النفس ، وما ورد في القرآن جلي صريح ، وهو جدير باسترعاء نظر النقاد ، الذين ادعوا أن الإسلام دين السيف ؛ يقول القرآن الكريم : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ .

وفي آية أخرى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ .

وعلى هذا اشترط الإسلام للقتال شرطين : أن يكون للدفاع عن النفس ، وأن ينتهي بانتهاء الدافع إليه ؛ وعلى ذلك نهى الإسلام المسلمين

عـن أن يكونـوا البادئيـن بالقـتال ، وحتم عليهم أن ينتظروا حتى يبدأ عدوهـم بالاعـتداء . هـذا من جهة البدء في القتال ، أما فيما يختص بالقـتال نفسه ، فإن رأي المسلم من عدوه ميلاً إلى المصالحة ، فينبغي للمسلم أن يقبل الصلح من فوره ، وأن يساعده على ذلك .

❁❁❁

الاستطلاع لكشف تحركات العدو

اتخـذ النبي ﷺ بعض الإجراءات على سبيل الاحتياط ، فقد كان مـن الضروري أن يعرف ما تبيت لـه قريش ، وكانت الحاجة الملحة تشـير بخلـق علاقـات ود وصداقة مع القبائل المحيطة بالمدينة ، لذلك أرسـل النبـي سـرايا صـغيرة للاستطلاع ، وكشف حركات العدو ، والاتصـال بالقـبائل التـي بين مكة والمدينة ، لضمان حيادها ، وربما كانـت هناك فائدة أخرى ترجى من حركة الاستطلاع هذه ، هي إحباط هجـوم مفاجـئ للعدو ، فإذا ما علمت قريش أن محمداً لا يغفل ، فإنها تحجـم عـن التفكير في مباغتة المسلمين ، فإذا ما همت بالهجوم فكرت كثيرا قبل إقدامها ، لأنها تعلم أن يثرب في طريق تجارتها مع سورية ؛ وهـذه الـتجارة عماد ثروتها وعزها ، فإن اضطراب حبل الأمن فيها ، ووقعـت الواقعة ، هددت تجارتها ، وكان في هذا ما يكفي لتأجيل القتال ، وقد أعطى النبي ﷺ الأوامر المشددة إلى السرايا باجتناب القتال .

❁❁❁

المعاهدات مع بعض القبائل من غير المسلمين

وكـان من نتيجة المفاوضات التي أشرنا إليها ، أن قبلت عدة قبائل الارتـباط مـع المسلمين بمعاهدات ، على الرغم من أنهم وثنيون كأهل مكـة ، وممـا هو جدير بالملاحظة أن هذه المعاهدات كلها ذات صبغة

دفاعية محضة ، وقد ذكر في معاهدة كُتبت عن محمد وبني حمزة أن حياتهم وممتلكاتهم في أمان ، فإذا اعتدى عليهم معتد ساعدهم المسلمون ، إلا إذا حاربوا مؤمنين ، وأن عليهم مساعدة النبي إذا اعتدى عليه معتد .

سرية نخلة (1)

بعث رسول الله عبد الله بن جحش في جمادى الثانية ، من السنة الثانية من الهجرة ، ومعه جماعة من المهاجرين ، ودفع إليه كتابا ، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فيمضي لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً ، وفتح عبد الله الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه : " إذا نظرت في كتابي هذا ، فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارها " لم يكن بعث هذه السرية سوى إجراء من إجراءات الاحتياط والاستطلاع ، حتى لا يباغت المسلمون بهجوم العدو ، ولم يكن هناك غرض آخر لهذه السرية ، فليس من المعقول أن يكون غرضها مهاجمة مكة ! لقد كانوا فئة قليلة ، أقل من أن تقوم بمثل هذا الهجوم ، ولم يكن النبي ﷺ ليضيع بعض أصحابه بهذا الهجوم الضائع ، وكل ما هنالك أن النبي كقائد ماهر عرف قيمة الاستطلاع ، وكشف حركات العدو ، واستقراء نياته .

مقتل عبد الله بن الحضرمي

سارت السرية حتى نزلت نخلة ، ومرت بهم هناك عير لقريش ، فهاجموها على الرغم من أوامر النبي الصريحة المشددة ، وقتلوا عبد الله بن الحضرمي ، وأسروا أسيرين وعادوا بهما إلى النبي ﷺ ، فلما بلغ

---

(1) السرايا تقرب من سبعين . وقد استوعبها ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/٥- ٦ والغزوات وهي التي خرج فيها النبي ﷺ بنفسه سواء قاتل فيها أم لم يقاتل تسع عشرة على أصح الآراء – فتح الباري ٧/٢٧٩ حديث ٣٩٤٩.

النبأ الرسول قال لعبد الله : " ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام " وعنفه تعنيفاً شديداً ، أما قريش التي كانت تنتظر مواتاة الفرصة من أمد طويل لتطلق العنان لعدائها وكيدها ، فقد وجدت في الحادث فرصتها فاهتبلتها .

مـــا كان لحادث القتل عن غير قصد أهمية خاصة عند العرب ، وإنـــه لحـــادث عادي ، يقع مثله كل يوم ، وإن الإجراء المتبع في مثل حـــادث الحضـــرمي هـــو المطالبة بالدية ، ولكن قريشاً واتتها الفرصة لإثـــارة الناس عامة ضد المسلمين ، وقد نجحت في ذلك وراحت تستعد نحـــو شـــهرين ، للهجوم على المدينة في شهر رمضان من السنة الثانية للهجـــرة ، وخرجـــت ووقعـــت المعركة التي عرفت فيما بعد في تاريخ الإسلام بغزوة بدر .

۞۞۞

غزوة بدر [1]

ومـــن غريـــب الصُـــدف أن قافلة تجارية قرشيةِ تحت إمرة أبي ســفيان كانـــت في هذا الوقت نفسه عائدة من سورية . وقبل أن تغادر ســـورية أرســـل أبوســـفيان إلى قريش من يعلمها بضرورة العمل على تأمين القافلة ، ففهم من ذلك أن المسلمين عازمون على التربص بالقافلة لمهاجمتها . ومن هنا نشأت غزوة بدر . وهذا رأي عار عن الصحة لا أساس له . فإن هذه القافلة بالذات وهي في طريق ذهابها إلى سورية قد مـــرت على المدينة بسلام ولم يعترضها أحد . ثم إنه في محاولة قريش إثارة عامة الناس ضد الإسلام لم يأت ذكرٌ لهذا الزعم الكاذب القائل بأن القافلة كانت في خطر .

إن مقـــتل ابن حضرمي هو الحادث الوحيد الذي أمكنهم استغلاله لإثـــارة الـــناس فـــي طلب الثأر . يضاف إلى ذلك أن القافلة قد غيرت مسلكها وخالفت الطريق العام ، فسارت بمحاذاة الشاطئ ، ووصلت إلى مكـــة سالمة قبل أن يشتبك الجيشان في بدر !! وهكذا يظهر واضحاً أن لا أساس من الصحة لأي زعم آخر ينسب إلى المسلمين .

قـــال الله تعـــالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ [2]

---

(١) بـــدر : قـــرية مشهورة نُسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانه كان قد نـــزلها ويقال : بَدر بن ثابت ويقال : بدر اسم البئر الذي بها . وتقع على بُعْد ١٥٠ كـــيلو مـــتر مـــن المدينة من الجهة الغربية على الطريق القديم المتجه لمكة . انظر : الزهر الباسم صـــ٢١٤ - الطبقات ٢٧/٢.

(٢) آل عمران (١٢٣: ١٢٦)

بـــدر : هي قرية مشهورة نُسِبَت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانه كان نزلها ، ويقال بدر بنُ الحارث ، ويقال بدر اسم البئر التي بهـــا [1]، سُمِّيَت بذلك لاستدارتها أو لصفاء مكانها ، فكان البدر يرى فيها [2].

وحكـــى الواقــدي إنكار ذلك كله عن غير واحد من شيوخ بني غفار ، وإنما هي مأوانا ومنازلنا وما ملكها أحد قط يقال له بدر ، وإنما هو علم عليها كغيرها من البلاد [3].

قولـــه : ﴿ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أي قلـــيلون بالنســـبة إلـــى من لقيهم من المشـــركين ، ومن جهة أنهم كانوا مشاة إلا القليل منهم ، ومن جهة أنهم كـــانوا عاريـــن مـــن الســـلاح وكان المشركون على العكس من ذلك ، والســـبب فـــي ذلك أن النبي ﷺ ندب الناس إلى تلقي أبي سفيان لأخذ ما معـــه من أموال قريش ، وكان من معه قليلاً فلم يظن أكثر الأنصار أنه يقع قتال فلم يخرج معه منهم إلا القليل ، ولم يأخذوا أهبة الاستعداد كما ينبغي ، بخلاف المشركين فإنهم خرجوا مستعدين ذابين عن أموالهم [4].

والمراد بالطائفتين العير والنفير ، فكان في العير أبو سفيان ومن معـــه كعمـــرو بـــن العاص ومخرمة بن نوفل وما معهما من الأموال ، وكـــان في النفير أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما من رؤساء قريش مســـتعدين بالســـلاح متأهبيـــن للقتال ، وكان ميل المسلمين إلى حصول

---

(١) بدر تقع على بعد ١٥٠ كم من المدينة من الجهة الغربية على الطريق القديم المتجه إلى مكة .

(٢) الزهر الباسم ، خ ، القسم الثاني ، ص ٢١٤.

(٣) نقله البكري عن الواقدي : معجم ما استعجم ٢٣١/١، الطبقات ٢٧/٢.

(٤) فتح الباري ٢٨٥/٧.

العير لهم ، وهو المراد بقوله : ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ والمراد بذات الشوكة الطائفة التي فيها السلاح .

مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه (موقف الأنصار والمهاجرين) :

قال الله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ الآيات – إلى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [1]

وذكر ابن إسحاق أن المقداد لما وصل النبي ﷺ الصفراء[2] وبلغه ان قريشاً قصدت بدراً ، وان أبا سفيان نجا بمن معه ، فاستشار الناس ، فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمر كذلك ، ثم المقداد فذكر نحو ما في حديث الباب ، وزاد : (فقال والذي بعثك بالحق لو سلكت بنا برك الغماد لجاهدنا معك من دونه . قال : فقال : أشيروا عليّ . قال : فعرفوا أنه يريد الأنصار ، وكان يتخوف أن لا يوافقوه ؛ لأنهم لم يبايعوه إلا على نصرته لا أن يسير بهم إلى العدو ، فقال له سعد بن معاذ : امض يا رسول الله لما أُمِرت به فنحن معك ، قال : فسره قوله ونشطه) [3].

وروي ابن أبي حاتم من حديث أبي أيوب قال : (قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة :إني أُخْبِرتُ عن عير أبي سفيان ، فهل لكم أن

---

(١) الأنفال (٩: ١٢).

(٢) الصفراء : من ناحية المدينة ، وهو واد كثير النخل والزرع والخير في طريق الحاج وسلكه رسول الله ﷺ غير مرة ، وبينه وبين بدر مرحلة ، معجم البلدان ٤١٢/٣، ولا يزال معروفاً ، ويسمى الواسطة .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٦١٥/١، ورواية المقداد مع ضعفها لأنها مرسلة إلا أن مبدأ الشورى ثابت بالكتاب والسنة لما فيه من معرفة مختلف الآراء والوصول إلى أصوبها .

تخـرجوا إليها لعل الله يغنمناها ؟ قلنا : نعم ، فخرجنا ، فلما سرنا يوماً أو يوميـن قال : قد أخبروا خبرنا فاستعدوا للقتال ، فقلنا : لا والله ما لنا طاقـة بقتال القوم ، فأعاده ، فقال له المقداد : لا نقول لك كما قالت بنو إسـرائيل لموسـى ، ولكن نقول إنا معكما مقاتلون قال : فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد . فأنزل الله تعالى : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [(١)]

مناشدة الرسول ﷺ ربه عز وجل :

عـن ابـن عباس ﷺ قال : (قال النبي ﷺ يوم بدر : اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ...) [(٢)]

هـذا من مراسيل الصحابة فإن ابن عباس لم يحضر ذلك ، ولعله أخـذه عـن عمر أو عن أبي بكر ، ففي مسلم من طريق أبي زميل - بالـزاي مصغر - واسمه سماك بن الوليد عن ابن عباس قال : (حدثني عمـر : لمـا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصـحابه ثلـثمائة وتسعة عشر ، فاستقبل القبلة ثم مد يديه ، فلم يزل يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه) الحديث [(٣)].

بداية القتال :

عـن أبـي أسـيد بن ربيعة الخزرجي الساعدي قال : (قال لنا رسـول الله ﷺ يـوم بـدر : إذا أكثبوكم - يعني أكثروكم - فارموهم ، واستبقوا نبلكم) [(٤)]

---

(١) الآية من سورة الأنفال (٥) ، تفسير ابن أبي حاتم ، فتح الباري ٧/٢٨٨ .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٢٨٧ (٣٩٥٣).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/٨٤- ٨٥ .

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٣٠٦(٣٩٨٤).

عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال : (أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة) وقال قيس بن عباد وفيهم أنزلت : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ (١)

عن أبي ذر ﷺ : نزلت : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ في ستة من قريش (٢).

(في ستة من قريش) أي ثلاثة من المسلمين من بني عبد مناف : اثنين من بني هاشم ، وواحد من بني عبد المطلب ، وثلاثة من المشركين من بني عبد شمس بن عبد مناف .

وذكر ابن إسحاق أن عبيدة بن الحارث ، وعتبة بن ربيعة كانا أسن القوم ، فبرز عبيدة لعتبة ، وحمزة لشيبة ، وعلي للوليد (٣)، في حين ورد عند موسى بن عقبة : برز حمزة لعتبة ، وعبيدة لشيبة ، وعلي للوليد (٤). ثم اتفقا فقتل على الوليد ، وقتل حمزة الذي بارزه ، واختلف عبيدة ومن بارزه بضربتين فوقعت الضربة في ركبة عبيدة فمات منها لما رجعوا بالصفراء ، ومال حمزة وعلى إلى الذي بارز عبيدة فأعاناه على قتله .

وعند الحاكم من طريق عبد خير عن علي مثل قول موسى بن عقبة (٥)، وعند أبي الأسود عن عروة مثله (٦).

---

(١) الحج (١٩) ، صحيح البخاري مع فتح الباري ٢٩٦/٧ (٣٩٦٥) .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢٩٦/٧(٣٩٦٦).

(٣) ابن هشام :السيرة النبوية ٦٢٥/١ .

(٤) البيهقي : دلائل النبوة ١١٤/٣ .

(٥) المستدرك مع التلخيص ١٩٤/٣ .

(٦) فتح الباري ٢٩٧/٧ .

قتلى المشركين ببدر :

(عن سعد بن معاذ أنه قال : كان صديقاً لأمية بن خلف ....)[1]

وقــع عــند مســلم من حديث أنس عن عمر قال : (إن النبي ﷺ ليريــنا مصارع أهل بدر يقول : هذا مرع فلان غداً إن شاء الله ، وهذا مصــرع فــلان ، فو الذي بعثه بالحق ما أخطأوا تلك الحدود)[2]. وهذا وقع وهم ببدر في الليلة التي انتقلوا في صبيحتها.

مقتل أبي جهل :

عن عبد الله بن مسعود ﷺ (أنه أتى أبا جهل وبه رمق يوم بدر..)[3] كأن أبا جهل قد ضرب في المعركة حتى خر صريعاً .

عــن ابن مسعود قال : (أدركت أبا جهل يوم بدر صريعاً ، فقلت : أي عدو الله ، قد أخزاك الله قال : وبما أخزاني من رجل قتله قومه)[4].

أسارى بدر :

عــن أنــس بن مالك (أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا : ائذن لنا فلنترك لابن أخينا عباس فداءه ..) [5]

قوــله : (أن رجــالاً مــن الأنصار) أي ممن شهدا بدراً ، لأن العــباس كــان أســير ببدر ، وكان المشركون أخرجوه معهم إلى بدر ، وأخــرج ابــن إسحاق من حديث ابن عباس (أن النبي ﷺ قال لأصحابه

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢٨٢/٧(٣٩٥٠).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٠٦/١٧.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢٩٣/٧ (٣٩٦١).

(٤) المعجم الكبير : ص ٨٣ (٨٤٥٤) ، فتح الباري ٢٩٤/٧.

(٥) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٢١/٧ (٤٠١٨).

يـوم بـدر : قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم قد أخرجوا كرهاً ، فمن لقي أحداً فلا يقتله) [(١)].

وروى أحمـد مـن حديث البراء قال : (جاء رجل من الأنصار بالعـباس قـد أسـره ، فقال العباس : ليس هذا أسرني بل أسرني رجل أنزع ، فقال النبي ﷺ للأنصاري : أيدك الله بملك كريم)[(٢)]

واسم هذا الأنصاري أبو اليسر ، وهو كعب بن عمرو الأنصاري

أخـرج مسلم[(٣)] في صحيحه من حديث عمر أن النبي ﷺ قال : (ما تـرون فـي هـؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : أرى أن تأخذ منهم فدية تكـون قوة لنا ، وعسى الله أن يهديهم . فقال عمر : أرى أن تُمكّنّا منهم فنضـرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبـو بكر) الحديث ، وفيه نزول قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [(٤)]

أدى إلـى معـركة بـدر رغـبة قريش الجامحة . في إبادة قوة الإسـلام النامية المتزايدة ؛ إن هذه الرغبة هي السبب الوحيد للمعركة ، ولا يعـدو الحقـيقة القـول بأن المسلمين قد استدرجوا إليها استدراجاً ، ومـن الثابت أن قواتهم يوم ذاك لم تتعد ٣٨٣ شخصاً بما في ذلك الفتيان وكـانوا عُـزلاً مـن السلاح . وهذا دليل على أنهم ما كانوا يستطيعون مقابلـة أعدائهـم وعددهـم ألف مقاتل ، مجهزين بالعدة والسلاح ؛ وقد

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٦٥٩/١ .

(٢) أحمد : المسند ٢٨٣/٤ ، فتح الباري ٣٢٢/٧.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٨٦/١٢- ٨٧ .

(٤) الأنفال (٧٦) ، فتح الباري ٣٢٤/٧- ٣٢٥ .

وصف القرآن حالة المسلمين النفسية عندما استدعوا للدفاع في الآية الآتية : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۞ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ .

خرجت قريش كلها لمحاربتهم ، فكان لابد من أن يدافعوا عن أنفسهم ، وما كان للنبي أن يسكت على عدو لن يستريح إلا إذا أبادهم ، فجمع النبي أصحابه ، وعرض عليهم الموقف ، وكان الأنصار قد بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه منه أبناءهم ونساءهم ، ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم ؛ فقال النبي ﷺ لهم : " أشيروا على أيها الناس " فقال صاحب رأيهم : " لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تُقر به عينيك ، فسر بنا على بركة الله "

هذه الفئة القليلة من المسلمين ، التي عملت على عجل ، ولما يكتمل سلاحها ، خرجت معتمدة على الله ، إلى طريق مكة العام لوقف هجوم قريش ، فما كان من المرغوب فيه أن تبلغ المعركة ديارهم المدينة ، فلما وصلوا إلى بدر ، بئر هناك ، وجدوا جيش القريشيين قد عسكر هناك ، فعسكروا انتظاراً لبدء القتال .

دعاء الرسول ومناشدته واستغاثته ربه

ما كان جيش المسلمين يبلغ ثلث جيش الأعداء ، الذي كان مكوناً من رجال مارسوا الحرب وألفوا فنونه ، وكان في جيش

المسلمين أحداث لا خبْرة لهم بالطَّعْن والنِّزال ، فما كان المسلمون أكفاء لقـــريش عدداً ودربة ومهارة ، وقد أقلق هذا النبي ، واختلى في عَرِيشٍ أُعِـدَّ لــهُ، واستقبل القبلة ، واتجه إلى ربه بكل نفسه ، وجعل ينشده ما وعــده ويبـــتهل إليه أن يتم نصره : " اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحــاول أن تُكَذِّبَ رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إن تهلك هــذه العصـــابة اليوم لا تعبد " ، استمر في مناشدة ربه حتى خفق خفقة من نعاس ، رأى خلالها نصر الله ؛ فخرج من العريش والبشر باد على وجهه ، وقرأ بصوت مسموع ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

۞۞۞

سير المعركة

لــم يــتقدم المســلمون للقتال تبعاً لأوامر القرآن التي تنهي عن الاعــتداء ، وانــتظروا ابتداء قريش بالعداء ، فخرج ثلاثة من صناديد قــريش يطلــبون الــنزال ، وكانــت هذه عادة العرب في القتال ، تبدأ المعركة ببعض منازلات ، ثم تدور رحاها ، فخرج لهم ثلاثة أبطال من المســلمين وشــدوا علــيهم وتــركوهم كأمس الذاهب ، وحدثت بعض مــنازلات أخــرى بعد ذلك ، ثم كانت المعركة الكبرى ، فزحفت قريش علــى المسلمين بكل قواها، وثبت لهم المسلمون وردوهم على أعقابهم ، وجــاء عــون الســماء ، فراح صناديد قريش وساداتها ، الذين ناصبوا الإسلام العداء ، يسقطون صرعى الواحد تلو الآخر ، وقتل غلامان من الأنصـــار أبـــا جهل ؛ فلما رأت قريش قتل ساداتها ، دب الذعر بينها ، وولــت الأدبـــار ، تاركة سبعين قتيلاً ، وتعقبهم المسلمون وأسروا منهم سبعين أسيراً ، وكان عدد ضحايا المسلمين ١٤ قتيلاً فقط .

۞۞۞

استجابة الله لرسوله ومعونته للمسلمين [1]

ظهـرت معونة الله للمسلمين في غزوة بدر ظهوراً أخاذا ، وقد تكـون هـذه الغـزوة فريدة في تاريخ المعارك والحروب ، وقد يحدث كثـيراً أن تهـزم فئة قليلة فئة كبيرة ، ولكن هذه الفئة القليلة تكون دائماً مجهزة بالسلاح الغزير المتفوق ، مكونة من جنود شجعان مدربين ، لها مـن المزايا ما يفوق الفئة الكبيرة ؛ أما في غزوة بدر فحال على النقيض ، مما يجعلها فريدة في بابها ، فالفئة الضعيفة من كل الوجوه ، تقاتل الفئة القويـة مـن كـل الوجوه ، وتنتصر عليها !! . كان تعداد قوات قريش ثلاثة أضعاف .

۞۞۞

بداية القتال والمبارزة

قـوات المسـلمين ، ونزلـت قريش في مكان أمنع مما نزل فيه المسـلمون ، وكانوا جنوداً خبروا الحرب ومارسوها مدربين محنكين ، وكـان جهـازهم وعتادهم كثيراً ، أكثر مما يحتجون إليه ، معهم أسلحة كاملـة ، ومائـة فرس ، وسبعمائة راحلة ، هذه قوتهم ، فماذا كانت قوة المسـلمين ؟ كان عددهم ثلث عدد عدوهم ، وقوام جيشهم فتية ما تدربوا علـى الحـرب وما ألفوها، وبعض شيوخ المهاجرين والأنصار ، وما كـانوا كلهـم أكفاء لمنازلة قريش ، وكم كان معهم من الخيل والإبل ، ثلاثـة فرسان وسبعون جملاً ، هذا كل ما يملكون ، أما الفرق في العتاد فحـدث عنه ولا حرج ، كان الافتقار التام يقابل الغنى والعز ، ولكن الله نفخ في الضعفاء روح القوة ، قوة تفوق العدد والعدة والعتاد ، قوة فرت

---

(١) صـحيح الـبخاري مـع فتح الباري ٨/٦١٩ حديث ٤٨٧٥ ، ومسلم بشرح النووي ١٢/٨٤– ٨٥.

من أمامها الكثرة مدحورة مهزومة مذمومة ، إنها معجزة ، وإلى هذه المعجزة يشير القرآن : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ .

❊❊❊

رُقيُّ المسلمين في معاملة الأسرى

عامل المسلمون أسرى الحرب معاملة رحيمة غير مألوفة ، فأثرت في نفوس كثيرة منهم ، وعروا للإسلام نبله ، وقال أحدهم ، وقد أسلم فيما بعد ، معترفاً بجميل ما عومل به وهو أسير : إن من وكل إليهم أمره كانوا يقدمون إليه أفضل ما في دارهم من الطعام ، ويكتفي أهل البيت بالتمر والماء ، وعلى الرغم من أن العداوة لم تنته ، فقد كان المسلمون يطلقون سراح أسراهم بمجرد تسلم الفدية من الأغنياء ، وكان يطلق سراح الفقراء بلا مقابل ، وكان على من يعرفون الكتابة والقراءة أن يعلموا عشرة من المسلمين قبل إطلاق سراحهم ، واعتبرت هذه فدية كافية لإطلاق السراح وكانت الفدية ٤٠٠٠ درهم ، وعلى ذلك كان تعليم عشرة من المسلمين يساوي ٤٠٠٠ درهم ، وهذا دليل على تقدير النبي ﷺ للعلم والتعليم ، وما أغلظ المسلمون لأسير ، على الرغم من أن هذه المرة الأولى التي يقع فيها القرشيون تحت أيديهم ، بعد أن ساقوهم العذاب السنين الطوال ، وإن المعاملة الحسنة لتبدو جلية من الحادث التالي : كان بين الأسرى سهيل بن عمرو ، وقد اشتهر سهيل بطلاقة اللسان التي طالما استغلها في تحريض الناس على محمد ، فعز على عمر بن الخطاب أن يفتدى وينجو ، فقال : يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي

سـهيل بـن عمرو ، ليدع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في مواطن أبداً ، فكان جواب النبي ﷺ : " لا أُمثِل به ، فيمثلُ الله بي ، وإن كنت نبياً " .

❁❁❁

غزوة بدر الضربة القاصمة لقريش

كانـت غزوة بدر ضربة قاصمة لقوة قريش ، كما كانت نصراً مـؤزراً للمسـلمين ، وكـان لها أثر عجيب في اليهود ، وقبائل العرب المجـاورة ، فكانوا يتساءلون في قرارة نفوسهم : كيف أمكن الفئة القليلة الضـعيفة أن تنتصـر على الفئة الكبيرة القوية ؟ إن يد الله ساعدتهم ولا ريـب . وكـيف قـتل صناديد قريش وأشرافها ؟ إن هذا من تدبير الله ولاشك .

استجابة الله لرسوله

وهـناك ما هو أهم من ذلك ، وأجدر بالنظر ، ففي ميدان القتال اخـتلى النبـي في عريشه ، وراح يناجي ربه ، ويطلب عونه ، ويبتهل إليه ، ودموعه جارية ، أن يكتب النصر للمسلمين[1] .وقد ابتهلت قريش إلـى أربابهـا المنصوبة في الكعبة قبل خروجها للقتال ، وقد التمس كل مـن الفريقيـن عـون ربه ، وقد أجاب الله دعاء محمد ، ونصره وأيده بـروح من عنده لأنه كان على حق ، ولأن القرشيين كانوا في ضلالهم يعمهـون . كانت نتيجة المعركة حكم السماء ، فكتب النصر للمؤمنين . وكسـر العدو ، وتحقق وعد الله للمسلمين ، ذلك الوعد الذي عاشوا في انـتظاره اثنـي عشر عاماً ، وعد الله أن يتم نوره ولو كره الكافرون . لقد

---

(١) كـان من دعاءه ﷺ " اللهم إن تَهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض " - مسـلم بشرح النووي ١٢/٨٤- وقوله ﷺ في سجوده " يا حي يا قيوم " فتح الباري ٧/٢٨٩.

كـــانوا طوال سنين الاختيار القاسية ، يسامون الاضطهاد والإيذاء والتعذيب ، وكانـــت الســـماء عونهم الوحيد ، لقد وعدوا بأن هذا الاضطهاد سيهزم في نهاية الأمر ، وهاهو ذا الوعد تحقق ، وأصبح حقيقة ناصعة الجبين .

۞۞۞

مشاورة الرسول ﷺ أصحابه في أسرى بدر

روي جبـــير بـــن مطعم عن النبي ﷺ في أسارى بدر قوله " لو كان المطعم بن عدي حيّاً ثم كلمني هؤلاء النّتنى لتركتهم له "[1] والمراد بالنتنى أسارى بدر من المشركين . وتركتهم له بغير فداء .

وروي الـــترمذي والنســـائي وابن حبان والحاكم عن علي قال : "جـــاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال : خيِّر أصحابك في الأسرى إن شـــاء القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم عاما مقبلاً مثلهم قالوا : الفداء ويقتل منّا "[2] وهذه القصة أخرجها مسلم في صحيحه مُطوّلة[3] .

وقد أختلف السلف في أي الرأيين كان أصوب : القتل أو الفداء ؟

فقـــال بعضهم : كان رأي أبي بكر لأنه وافق ما قَدَّر الله في نفس الأمر ولمـــا اســـتقر الأمر عليه ولدخول كثير منهم في الإسلام إما بنفسه وإما بذريته التي ولدت بعد ذلك.

وأمـــا العِـــتاب : علـــى الأخذ ففيه إشارة إلى ذمّ من آثر من الدنيا على الآخرة وإن قل[4] .

---

(١) فتح الباري ٣٢٣/٧ حديث ٤٠٢٤ .

(٢) فتح الباري ٣٢٤/٧.

(٣) مسلم بشرح النووي ٨٦/١٢- ٨٧.

(٤) فتح الباري ٣٢٥/٧.

عدة أصحاب بدر .

عن البراء قال : " استُصغِرتُ أنا وابن عمر يوم بدر ... " .

عـن أبـي إسـحاق قـال : " سمعت البراء ﷺ يقول : حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت " .

عـن الـبراء قـال : " كـنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت ... " .

عـن إبي إسحاق عن البراء ﷺ قال : " كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاثمائة وبضعة عشر بعدة أصحاب طالوت ... " [(١)].

باب تسمية من سُمِّيَ من أهل بدر :

فـي " الجامع" الذي وضعه أبو عبد الله البخاري رحمه الله على حروف المعجم :

النبـي محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ ، إياس بن البكير ، بلال بن رباح مولـى أبي بكر القرشي ، حمزة بن عبد المطلب الهاشمي ، حاطب بن أبي بلتعة حليف لقريش ، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشي ، حارثة بـن الربـيع الأنصـاري قُتِل يوم بدر وهو حارثة ابن سراقة كان في الـنظارة ، خبيـب بـن عدي الأنصاري ، خنيس بن حذافة السهمي ، رفاعـة بن رافع الأنصاري ، رفاعة بن عبد المنذر أبو لبابة الأنصاري ، الزبـير ابـن العوام القرشي ، زيد بن سهل أبو طلحة الأنصاري ، أبو زيـد الأنصـاري ، سـعد بن مالك الزهري ، سعد بن خولة القرشي ، سـعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي ، سهل بن حنيف الأنصاري ، ظهـير بن رافع الأنصاري وأخوه ، عبد الله بن عثمان أبو بكر الصديق

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٢٩٠- ٢٩١ (٣٩٥٦- ٣٩٥٩) .

القرشـــي ، عــبد الله بن مسعود الهذلي ، عتبة بن مسعود الهذلي ، عبد الرحمـــن بـــن عـــوف الزهري ، عبيدة بن الحارث القرشي ، عبادة بن الصـــامت الأنصـــاري ، عمـــر بن الخطاب العدوي ، عثمان بن عان القرشـــي خلفـــه النبـــي ﷺ على ابنته وضرب له بسهمه ، علي بن أبي طالب الهاشمي ، عمرو بن عوف حليف بني عامر ابن لؤي ، عقبة بن عمـــرو الأنصـــاري ، عامـــر بـــن ربـــيعة العنزي ، عاصم بن ثابت الأنصـــاري ، عويم بن ساعدة الأنصاري ، عتبان بن مالك الأنصاري ، قدامـــة بـــن مطعون ، قتادة بن النعمان الأنصاري ، معاذ بن عمرو بن الجموح ، معوّذ بن عفراء وأخوه ، مالك بن ربيعة أبو أسيد الأنصاري ، مـــرارة بـــن الربيع بن عبد مناف ، مقداد بن عمرو الكندي حليف بني زهرة ، هلال بن أمية الأنصاري ﷺ جميعاً .(1)

وقال ابن إسحاق وغيره زادوا :

واســـتوعب مـــا وقع له من ذلك فزادوا – على ثلاثمائة وثلاثة عشـــر – خمســـين رجلاً(2) ، **قال** : وسبب الزيادة الاختلاف في بعض الأســـماء . ولولا خشية التطويل لسردت أسماءهم مفصلاً مبيناً الراجح ، لكن في هذه الإشارة كفاية (3).

شهود الملائكة بدراً :

وأخـــرج البيهقي من طريق البيع ابن أنس قال : " كان الناس يوم بـــدر يعرفون قتلى الملائكة من قتلى الناس بضرب فوق الأعناق وعلى البـــنان مثل وسم النار " ، وورد في " مسند إسحاق " : (عن جبير ابن

---

(1) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٣٢٦- ٣٢٧.

(2) ابن هشام ١/٦٧٧- ٧٠٦ .

(3) فتح الباري ٧/٣٢٩ .

مطعـــم قـــال : رأيت قبل هزيمة القوم ببدر مثل النجاد الأسود أقبل من السماء كالنمل فلم أشك أنها الملائكة ، فلم يكن إلا هزيمة القوم) [1].

وعـــند مسلم من حديث ابن عباس : (بينما رجل مسلم يشتد في أثر رجـــل مشـــرك إذ ســـمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس) الحديث . وفيه " فقال النبي ﷺ : ذلك مدد من السماء الثالثة " [2].

وعـــن ابن عباس ﷺ (أن النبي ﷺ قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ بـــرأس فرسه عليه أداة الحرب) [3]. هذا الحديث هو من مراسيل الصحابة ولعـــل ابـــن عباس حمله عن أبي بكر ، قد ذكر ابن إسحاق (أن النبي ﷺ يـــوم بـــدر خفق خفقة ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه الغبار) [4].

في أعقاب بدر

قتل كعب بن الأشرف :

عـــن عمرو سمعت جابر بن عبد الله ﷺ قال : (قال رسول الله ﷺ : من لكعب بن الأشرف ...) [5].

هـــو كعـــب بن الأشرف اليهودي ، قال ابن إسحاق : كان عربياً مـــن بني نبهان وهم بطن من طئ ، وكان أبوه أصاب دماً في الجاهلية فـــأتى المدينة فحالف بني النضير فشرف فيهم ، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقـــيق فولدت لـــه كعباً ، وكان طويلاً جسيماً ذا بطن وهامة ، وهجا

---

(١) البداية والنهاية ٣/٢٨٠- ٢٨٢ ، دلائل النبوة للبيهقي ٣/٥٦ - ٦١.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/٨٥- ٨٦ ، فتح الباري ٧/٣١٢.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٣٢(٣٩٩٥).

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٦٢٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٢٨٣- ٢٨٤

(٥) صـــحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٣٣٦- ٣٣٧ (٤٠٣٧) ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٦٢ .

المســلمين بعد وقعة بدر ، خرج إلى مكة نزل على ابن وداعة السهمي والــد المطلــب ، فهجــاه حسان وهجا امرأته عاتكة بنت أسيد بن أبي العــيص بنــت أمــية فطردته ، فرجع كعب إلى المدينة وتشبَّب بنساء المسلمين حتى آذاهم [1].

ومــن طريق أبي الأسود عن عروة : (أنه كان يهجو النبي ﷺ والمســلمين ويحرض قريشاً عليهم ، وأنه لما قدم على قريش قالوا له : "أدينــنا أهدى أم دين محمد ؟" قال : دينكم ، فقال النبي ﷺ : من لنا بابن الأشرف فإنه قد استعلن بعداوتنا) [2].

(قال : فافعل إن قدرت على ذلك) [3].

(فلما كان في القائلة ومعهم السلاح فقالوا : يا أبا سعيد ، فقال : سامعاً دعوت) .

(فقالــت له امرأته : أسمع صوتك كأنه يقطر منه الدم ، فتعلقت به امرأته وقالت : مكانك ، فوالله إني لأرى حمرة الدم مع الصوت) .

وفــي رواية الحميدي : قال : فأتاه ومعه أبو نائلة وعباد بن بشر وأبــو عيسى بن جبر والحارث بن معاذ وضربه محمد ابن مسلمة فقتله وأصــاب ذباب السيف الحارث بن أوس ، وأقبلوا حاى إذا كانوا بجرف بعــاث تخلف الحارث ونزف ، فلما افتقده أصحابه رجعوا فاحتملوه ، ثم اقبلوا سراعاً حتى دخلوا المدينة) [4].

---

(١) ابــن هشــام : السيرة النبوية ٥١/٢ ، البداية والنهاية ٧/٤ ، فتح الباري ٧/ ٣٣٧ .

(٢) دلائل النبوة ١٩٠/٣- ١٩١ ، فتح الباري ٣٣٧/٧ - ٣٣٨ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٥٤/٢- ٥٦ .

(٤) فتح الباري ٣٤٠/٧، البيهقي : الدلائل ١٩٢/٣- ١٩٩ .

وفـــي رواية ابن سعد (أن محمد بن مسلمة لما أخذ بقرون شعره ، قـــال لأصحابه : اقتلوا عدو الله ، فضربوه بأسيافهم فالتفت عليه فلم تغن شـــيئاً ، قال محمد : فذكرت معولاً كان في سيفي وضعته في سرته ، ثم تحاملت عليه غطغطته حتى انتهى إلى عانته ، فصاح وصاحت امرأته : يا آل قريظه والنضير مرتين) [1].

(فلمـــا بلغوا بقيع الغرقد كبروا ، وقد قام رسول الله ﷺ تلك الليلة يصـــلي ، فلمـــا سمع تكبيرهم كبر ، وعرف أن قد قتلوه ، ثم انتهوا إليه فقـــال : أفلحـــت الوجوه ، فقالوا : ووجهك يا رسول الله ، ورموا رأسه بين يديه ، فحمد الله على قتله) [2].

وفـــي حديـــث قتل كعب جواز قتل المشرك بغير دعوة إذا كانت الدعـــوة العامـــة قـــد بلغـــته [3]. وفيه جواز الكلام الذي يحتاج إليه في الحرب ولو يقصد قائله إلى حقيقته .

وفـــي الحديـــث دلالـــة على قوة فطنة امرأته المذكورة وصحة حديثها وبلاغتها في إطلاقها أن الصوت يقطر منه الدم [4].

❁❁❁

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/٣٢- ٣٤ .

(٢) فتح الباري ٧/٣٤٠ .

(٣) فتح الباري ٦/١٥٦ (٢٠٢٣).

(٤) فتح الباري ٧/٣٤٠ .

غزوة أحد [1]

لـــم يهـــدأ لقريش بال بعد اندحارها في بدر ، ورأت فيه عاراً لا يحســـن الســـكوت عليه ، بل ينبغي الأخذ بالثأر ، لقد وجهت الفئة القليلة الضعيفة الذليلة إليهم ضربة قاصمة ، وقتلت جل قادة قريش وساداتها ، ولـــم يـــبق إلا أبـــو ســـفيان لقريش ، فانتخبته سيداً لها ، فأقسم لينتقمن للإهانـــة المـــزرية التي لحقتهم ببدر ، فتم الاتفاق على تخصيص المال الـــوارد مـــع القافلة العائدة من الشام تحت إمرته ، لتجهيز حملة الانتقام والأخـــذ بالثأر ، فجند جيشاً كان قوامه بعد اثني عشر شهراً من هزيمة بـــدر ٣٠٠٠ مقـــاتل ، وكان من بينهم مائتا فارس ، و٧٠٠ من الجنود المدربيـــن المجهزين بالدروع الواقية ، وسمح للنساء بالخروج مع الجيش ، لإثـــارة حمـــية المقاتلين بأناشيدهن الحماسية ، وفي السنة الثالث للهجرة تحـــرك الجـــيش قاصـــداً المدينة ، في يوم الخميس التاسع من شوال ، وعســـكر أســـفل أحد ، وهو تل يبعد عن المدينة ثلاثة أميال ، وأطلقت قريش خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها .

جبل أحد :

عن أنس بن مالك ﷺ (أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال : هذا جـــبل يحبـــنا ونحـــبه - اللهم إن إبراهيم حرَّم مكة وإني حرَّمت ما بين لابتيها) [2].

---

(١) أُحُـــد سُـــمّي بذلـــك لـــتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى هناك - وهو جبل معـــروف بينه وبين المدينة أقل من فرسخ وهو الذي قـــال فيه الرســـول ﷺ " جبل أُحُد يحبُنا ونحبه "

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٧٧/٧ (٤٠٨٣- ٤٠٨٤) .

قــال الشــهيلي : سُــمّيَ أُحُد لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى هناك أو لما وقع من أهله من نصر التوحيد [(١)].

رؤيا الرسول :

عــن أبــي موســى ﷺ - أرى عن النبي ﷺ قال : (رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً ...) [(٢)].

ذكــر موســى بــن عقبة قال : لما رجعت قريش استجلبوا من اســتطاعوا من العرب وسار بهم أبو سفيان حتى نزلوا ببطن الوادي من قــبل أُحُد ، وكان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر وتمــنوا لقاء العدوّ ، ورأى رسول الله ﷺ ليلة الجمعة رؤيا ، فلما أصبح قــال : رأيــت البارحة في منامي بقراً تذبح ، والله خير وأبقى ، ورأيت ســيفي ذا الفقــار انفصــم من عند ظبته أو قال به فلول فكرهته ، وهما مصيبان ، ورأيت أني في درع حصينة وأني مردف كبشاً . قالوا : وما أولتها ؟ قال : أولت البقر بقراً يكون فينا ، وأولت الكبش كبش الكتيبة ، وأولــت الــدرع الحصــينة المديــنة ، فامكثوا ، فإن دخل القوم الأزقة قاتلــناهم ورمــوا مــن فوق البيوت ، فقال أولئك القوم : يا نبي الله كنا نتمنى هذا اليوم ، وأبى كثير من الناس إلا الخروج ، فلما صلى الجمعة وانصــرف دعــا بالأمة فلبسها ، ثم أذن في الناس بالخروج ، فندم ذوو الــرأي مــنهم فقــالوا ك يا رسول الله امكث كما أمرتنا ، فقال ﷺ : ما ينبغــي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب أن يرجع حتى يقاتل ، ونزل خرجَ بهم وهــم ألف رجل ، وكان المشركون ثلاثة آلاف حتى نزل بأُحُد ، ورجع

---

(١) الســهيلي : الروض الأنف ٣/١٥٨ -١٥٩ ، فتح الباري ٧/٣٧٧ - ٣٧٨ ، ٦/٨٧ .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٣٧٤(٤٠٨١).

عـنه عبد الله بن أبي بن سلول في ثلثمائة فبقي في سبعمائة ، فلما رجع عـبد الله سقط في أيدي طائفتين من المؤمنين وهما بنو حارثة وبنو سلمة ، وصف المسلمون بأصل أُحُد ، وصف المشركون بالسبخة وتعبأوا للقتال ، وعلـى خـيل المشركين - وهي مائة فرس - خالد بن الوليد ، وليس مـع المسلمين فرس ، وصاحب لواء المشركين طلحة بن عثمان ، وأمر رسـول الله ﷺ عـبد الله بن جبير على الرماة وهم خمسون رجلاً وعهد إلأيهـم أن لا يتركوا منازلهم ، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير ، فبارز طلحة بن عثمان فقتله ، وحمل المسلمون على المشركين حـتى أجهضوهم عن أثقالهم ، وحملت خيل المشركين فنضحتهم الرماة بالنبل ثلاث مرات ، فدخل المسلمون عسكر المشركين فانتبوهم ، فرأى ذلك الرماة فتركوا مكانهم ، ودخل العسكر ، فأبصر ذلك خالد بن الوليد ومـن معه فحملوا على المسلمين في الخيل مزقوهم ، وصرخ صارخ : قـتل محمـد أخـراكم ، فعطـف المسلمون يقتل بعضهم بعضاً وهم لا يشـعرون ، وانهـزم طائفة منهم إلى جهة المدينة وتفرق سائرهم ووقع فـيهم القتل وثبت نبي الله ﷺ حين انكشفوا عنه وهو يدعوهم في أخراهم ، حتى رجع إليه بعضهم وهو عند المهراس في الشعب ، وتوجه النبي ﷺ يلـتمس أصـحابه ، فاسـتقبله المشركون فرموا وجهه فأدموه وكسروا رباعيـته ، فمـر مصعب في الشعب ومعه طلحة والزبير ، وقيل معه طائفـة من الأنصار منهم سهل بن بيضاء والحارث بن الصمة ، وشغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم يقطعون الآذان والأنوف والفروج ويـبقرون البطون وهم يظنون أنهم أصابوا النبي ﷺ وأشرف أصحابه ، فقـال أبو سفيان يفتخر بآلهته : اعل هبل ، فناداه عمر : الله أعلى وأجل

،ورجع المشركون إلى أثقالهم [1] فقال النبي ﷺ لأصحابه : إن ركبوا وجعلوا الأثقال تتبع آثار الخيل ، فهم يريدون البيوت ، وإن ركبوا الأثقال وتجنبوا الخيل فهم يريدون الرجوع ، فتبعهم سعد بن أبي وقاص ، ثم رجع فقال : رأيت الخيل مجنونة ، فطابت أنفس المسلمين ورجعوا إلى قتلاهم فدفنوهم في ثيابهم ولم يغسلوا ولم يصلوا عليهم ، وبكى المسلمون على قتلاهم ، فسر المنافقون وظهر غش اليهود ، وفارت المدينة بالنفاق فقالت اليهود : لو كان نبياً ما ظهروا عليه ، وقال المنافقون : لو أطاعونا ما أصابهم هذا .

قال العلماء : وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة : منها -

١-تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي ، لما وقع من ترك الرماة موقعهم الذي أمرهم الرسول أن لا يبرحوا منه .

٢- ومنها أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة كما ورد في قصة هرقل مع أبي سفيان ، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب ، وذلك ان نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين ، فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً ، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم .

---

(١) فتح الباري ٣٤٦/٧.

٣- ومـــنها أن فـــي تأخـــير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس وكســـراً لشماختها ، فلما ابتلي المؤمنون صبروا وجزع المنافقون ، ومـــنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها .

٤- ومنها أن الشهادة من أعلى المراتب .

٥- ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بهـــا ذلـــك مـــن كفـــرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى المسلمين ، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين ، ومحق بذلك الكافرين [1].

قال ابن إسحاق : انزل الله في شأن أُحُد ستين آية من آل عمران [2].

وروي ابـــن أبـــي حـــاتم من طريق المسور بن مخزمة قال : قلت لعبد الرحمـــن ابـــن عـــوف أخبرنـــي عـــن قصتكم يوم أُحُد [3]، قال : اقرأ العشـــرين ومائـــة من آل عمران تجدها : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ - إلى قوله - ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [4]

قال النبي ﷺ : " إنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم " [5].

وكـــان أول من برز طلحة بن عثمان فقُتِل ن ثُمَّ حمل المسلمون علـــى المشـــركين فهـــزموهم ، وحمل خالد بن الوليد - وكان في خيل المشـــركين - علـــى الرماة فرموه بالنبل فانقمع ، ثم ترك الرماة مكانهم

---

(١) فتح الباري ٣٤٧/٧ .

(٢) ابن هشام ١٦٠/٢.

(٣) ابن أبي حاتم : تفسير ، خ ١٢١/٢ (١٨٧٤).

(٤) آل عمران(١٢١ -١٥٤) ، فتح الباري ٣٤٧/٧.

(٥) جامع البيان ١٢٥/٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، فتح الباري ٣٤٨/٧.

ودخلـوا العسـكر في طلب الغنيمة ، فصاح خالد في خيله فقتل من بقى مـن الـرماة ن مـنهم أميرهم عبد الله بن جبير ، ولما رأى المشركون خـيلهم ظاهرة تراجعوا فشدوا على المسلمين فهزموهم وأثخنوا فيهم في القتل .

قولـه : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ أي جبنتم . وقوله : ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي اختلفـتم ، أي دام لكـم ذلـك إلى وقت فشلكم ، ويجوز أن تكون حتى ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية وجوابها محذوف .

قولـه : ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ فـيه إشارة إلى رجوع المسلمين عن المشـركين بعـد أن ظهـروا عليهم لما وقع من الرماة من الرغبة في الغنـيمة ، وإلـى ذلك الإشارة بقوله : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [1]. قـال السـدي عـن عبد خير قال : قال عبد الله بن مسـعود : " مـا كنـت أرى أحد من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية يوم أُحُد " [2].

❀❀❀

الرسول ﷺ يعقد مَجْلِساً حَرْبِياً

فـي الـيوم التالـي ، العاشر من شوال ، عقد النبي ﷺ اجتماعاً حربـياً من أهل الرأي من المسلمين ، وراحوا يتشاورون فيما يفعلون ، فقـص النبي عليهم رؤيا رآها: فقد رأى في ذباب سيفه ثلما ، وفسر ذلك بأنـه سيجرح ، وأنه حمى صدره بدرع ، وفسر ذلك بأنه من المستحسن

---

(١) آل عمران (١٥٢) .

(٢) فتح الباري ٣٤٨/٧.

أن يـــبقى في المدينة ، وأن بقرة له تذبح ، وفسر ذلك بأن أحد أهل بيته يقـــتل ، فكـــان من رأى النبي أن يبقى المسلمون في المدينة للذود عنها ورد المعتديـــن ، وانحاز إلى رأي النبي أصحابه ذوو السن ، وكان من هـــذا الرأي أيضاً عبد الله ابن أبي سلول ، كبير المنافقين ، فقد أسلم نفاقاً بعـــد غزوة بدر ، ولكن كان رأي الأغلبية ، وجلها من الفتيان المتحمسين ، الخـــروج لملاقاة العدو خارج المدينة ، وكانت حجتهم أن العدو قد يؤول عـــدم خـــروجهم بضـــعفهم عن ملاقاته ، فيطمع فيهم ، وإنه لما يخدش الكـــرامة – كمـــا قالوا – أن يروا مزارعهم تُنهب وهم صامتون ، ولا يحـــركون ساكناً ، نزل النبي عند رأي الأغلبية ، ولبس لامته ، وخرج بهـــم من المدينة عند غروب الشمس ، على رأس قوة مؤلفة من ١٠٠٠ مقاتل ، وفارسين اثنين ، ومائة من الدارعين .

۞۞۞

جيش المسلمين يصل إلى أُحُد

أمضى المسلمون ليلهم خارج المدينة ، وفي صبيحة اليوم التالي ، اســـتأنفوا سيرهم ، ولما لمحوا قوات العدو ، أنخذل ابن أُبَيّ مع أصحابه وبقـــى النبي ﷺ ومعه سبعمائة مقاتِل من المؤمنين ، لمقابلة جيش عدته أربعـــة أمثالهم ، وحتى الذين ثبتوا مع النبي لم يكونوا ذوي دربة بفنون القـــتال ، ولكـــنهم كانوا ممتلئين حماسة للذود عن دينهم ، وأثار الإيمان فـــي قلـــوب الشيوخ حماسة الشباب ، وجعل الحداث يتظاهرون باكتمال الـــرجولة ، حـــتي يسمح النبي ﷺ لهم بالخروج ، فقد جاء : أن صبياً ، رفـــض قبولـــه لحداثـــة سنة ، كان يشد أعصابه ، ويقف على أطراف أصـــابعه ، ليبدو أطول من حقيقته ، وتقدم فتى آخر ، والتمس قبوله بين المقاتليـــن ، فـــرفض ، فقال إنه قوي ويستطيع أن يصرع رجلاً ، فتقدم

إلــيه رجل ، فتغلب الفتى عليه فقبلوه ، وتقدم شيخ مسن من رسول الله وقــال : " يــا نبي الله ، إني رجل كبير على شفا القبر ، فإن استشهدت وأنا أقاتل كان نعم الختام ".

التــئام جيش المؤمنين ، وكان يفتقر إلى الدربة ، ويعوزه السلاح ، ولكن نفسه كانت عامرة بالإيمان واليقين ، والإخلاص لدين رب العالمين ، تقــدم هــذا الجــيش الصغير ، لملاقاة جيش عدته ثلاثة آلاف مقاتل ، أقويــاء مدربيــن ، وكان النبي ﷺ قائداً محنكاً ، فاتخذ المكان العالي الذي يشــرف علــى العدو ، جاعلاً أحداً خلفه لحماية ظهره ، وكان هناك ممر فــي الجبل ، فخشى النبي أن ينقض العدو منه عليهم ، فأجلس خمسين من الــرماة لحماية هذا الممر ، وقال لهم : " لا تبرحوا ؛ إن رأيتمونا ظهرنا عليهم لا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا " .

تخاذل المنافقين :

عــن عــبد الله بن يزيد عن زيد بن ثابت ﷺ : ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ رجــع نــاس من أصحاب النبي ﷺ من أحد وكان الناس فيهم فريقين....)[1].

قصة الطائفتين :

قولــــــه : ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2] الفشــل هو الجبن ، وقيل الفشل في الرأي العجز ، وفي البدن الإعياء ، وفي الحرب الجبن [3].

---

(١) النساء (٨٨) ، صحيح البخاري مع فتح الباري ٨/٥٦ (٤٥٨٩).

(٢) آل عمران (١٢٢).

(٣) فتح الباري ٣٥٧/٧.

عن جابر ﷺ قال : (نزلت هذه الآية فينا . قول الله تعالى :﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بني سلمة وبني حارثة ...)[1] .

قصة الرماة :

عن البراء بن عازب ﷺ قال : " جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد عبد الله بن جبير .... "[2].

وعن البراء ﷺ قال : " لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله ..)[3].وكانوا خمسين رجلاً [4].

ثم قال لهم : " احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا " [5].

وقريش خرجوا معهم بالنساء لأجل الحفيظة والثبات ، وسمي إسحاق النساء المذكورات وهنَّ : هند بنت عتبة خرجت مع أبي سفيان ، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام مع زوجها عكرمة بن أبي جهل ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع زوجها الحارث بن هشام ، وبرزة بنت مسعود الثقفية مع زوجها صفوان بن أمية ، وهي والدة ابن صفوان ، وريطة بنت شيبة السهمية مع زوجها عمرو بن العاص ، وهي والدة ابنه عبد الله ، وسلافة بنت سعد مع زوجها طلحة بن أبي طلحة الحجبي ، وخناس بنت مالك والدة مصعب بن عمير ، وعمرة

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٥٧/٧ (٤٠٥١).
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢٢٧/٨ (٤٥٦١) ، ٣٦٤/٧.
(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٤٩/٧ - ٣٥٠ (٤٠٤٣).
(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري ١٦٢/٦ (٣٠٣٩).
(٥) فتح الباري ٣٥٠/٧.

بنت علقمة بن كنانة [1]. قال ابن إسحاق : كان النساء اللاتي خرجن مع المشركين يوم أُحُد خمس عشرة امرأة [2].

وفي حديث ابن عباس : (فلما غنم رسول الله ﷺ وأباحوا عسكر المشركين انكفت الرماة جميعاً فدخلوا في العسكر ينتهبون ن وقد التفت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ هم هكذا - وشبك بين أصابعه - فلما أخلت الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على الصحابة ، فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس كثير ، قد كانت رسول الله وأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين تسعة أو سبعة ، وجال المسلمون جولة نحو الجبل ، وصاح الشيطان : قُتِلَ محمد) [3].

وقع عند الطبري من طريق السدي قال : (تفرق الصحابة ، فدخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل ، وثبت رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله ، فرماه ابن قمئة بحجر فكسر أنفه ورباعيته ، وشجه في وجهه فأثقله ، فتراجع إلى النبي ﷺ ثلاثون رجلاً فجعلوا يذبُّون عنه ، فحمله منهم طلحة وسهل بن حنيف فرمى طلحة بسهم ، ويبست يده ، وقال بعض من فر إلى الجبل : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي يستأمن لنا من أبي سفيان ، فقال أنس بن النضر : يا قوم إن كان محمد قُتِل فرب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ... وقصد رسول الله ﷺ الجبل فأراد رجل من أصحابه أن يرميه بسهم ،

---

(1) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٦٢ .

(2) فتح الباري ٧/٣٥٠ .

(3) أحمد : المسند ١/٢٨٧- ٢٨٨ ، فتح الباري ٧/٣٥٠- ٣٥١ .

فقـــال لـــه : أنا رسول الله ، فلما سمعوا ذلك فرحوا به واجتمعوا حوله وتراجع الناس) [١].

فأصـــيب سبعون قتيلاً : أربعة من المهاجرين حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش وشماس بن عثمان ، وسائرهم من الأنصار [٢].

وأخـــرج ابـــن حبان [٣]، والحاكم[٤] في صحيحيهما عن أبي بن كعب قال : " أصيب يوم أحد من الأنصار أربعة ، ومن المهاجرين ستة ، وكـــان الخامس سعد مولى حاطب بن أبي بلتعة ، والسادس يوسف بن عمرو الأسلمي حليف بني عبد شمس " .

(وأشرف أبو سفيان) هو ابن حرب ، وكان رئيس المشركين يومئذ .

(فقال : أفي القوم محمد)

(فقـــال : لا تجيبوه) وقع في حديث ابن عباس [٥]. (أين أبي كبشة ؟ أيـــن ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : ألا أجيبه ؟ قال : بلى) .

(فقال : إن هؤلاء قتلوا إن الذي عددت لأحياء كلهم) [٦].

وأخـــرج ابن أبي حاتم من مرسل عكرمة قال : (لما صعد النبي ﷺ الجـــبل جـــاء أبو سفيان فقال : الحرب سِجَال - فذكر القصة قال -

---

(١) الطبري : جامع البيان ٤/١١١- ١١٢ ، فتح الباري ٧/٣٥١ .

(٢) سنن سعيد بن منصور ٢/٣١٩ (٢٨٩٤).

(٣) موارد الظمآن صـــ٤١١(١٦٩٥) .

(٤) المستدرك مع التلخيص ٢/٣٥٩ .

(٥) أحمد : المسند ١/٢٨٧- ٢٨٨ .

(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري ٦/١٦٣(٣٠٣٩) .

فأنـــزل الله تعالى : ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (١).

قـــال ابن إسحاق : حدثني صالح بن كيسان قال : (خرجت هند والنســـوة معها يمثلن بالقتلى ، يجدعن الآذان والأنف ، حتى اتخذت هند من ذلك حزماً وقلائد ، وأعطتَ حزمها وقلائدها – أي اللاتي كن عليها – لوحشي جزاء له على قتل حمزة ، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها) .

ما أصاب النبي ﷺ من الجراح :

حديث سهل بن سعد الساعدي (بأي شيء دُووي جُرح النبي ﷺ ...) (٢).
ســـهل هـــو آخـــر من بقى (٣). وكان بين غزوة أحد وبين تحديث سهل بذلك أكثر من ثمانين سنة (٤).

وعـــند أحمـــد(٥) ومسلم(٦) من حديث أنس (أن النبي ﷺ كسرت رباعيـــته يـــوم أحد وشج وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال : كيف يفلـــح قـــوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية .

---

(١) ابن أبي حاتم : التفسير ، خ ، ١٣٧/٢ (١٨٧٤) .
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٥٤/١ (٣٤٢) .
(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٤٣/٩ (٥٢٤٨) .
(٤) فتح الباري ٣٧٢/٧ – ٣٧٣ (٤٠٧٥) ، ٣٥٥/١.
(٥) المسند ٩٩/٣ .
(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤٩/١٢ :

وأخـــرج ابـــن عائذ من طريق الأوزاعي : (بلغنا أنه لما خرج رسول الله ﷺ يوم احد أخذ شيئاً فجعل ينشف به دمه وقال : لو وقع منه شيء على الأرض لنزل عليكم العذاب من السماء ، ثم قال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) [١].

قـــال ابن عائذ : (أخبرنا الوليد بن مسلم ، حدثني عبد الرحمن بن يـــزيد بن جابر ، أن الذي رمي رسول الله ﷺ بأحد فجرحه وجهه قال : خذهـــا مني وأنا ابن قمئة ، فقال : أقمأك الله . قال : فانصرف إلى أهله فخـــرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها فشد عليها تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع) [٢].

قتال الملائكة في أحد :

عـــن سعد بن أبي وقاص ﷺ ، قال : (رأيت رسول الله ﷺ يوم احد ومعه رجلان يقاتلان عنه ...) [٣].

(لم أرهما قبل ذلك اليوم ولا بعده) [٤].

أخـــرج الحـــاكم من طريق يونس بن بكير وهو في " المغازي " روايـــته من طريق عائشة بنت سعد عن أبيه ، قال : (جال الناس يوم أحد تلك الجولة ، تنحيت فقلت : أذود عن نفسي ، فإما أن أنجو وإما أن أستشـــهد ، فإذا رجل محمرّ وجهه وقد كاد المشركون أن يركبوه ، فملأ يده من الحصى فرماهم ، وإذا بيني وبين المقداد ، فأردت ان أسأله عن الـــرجل ، فقـــال لي : يا سعد هذا رسول الله يدعوك ن فقمت وكأنه لم

---

(١) فتح الباري ٣٧٣/٧ .

(٢) عيون الأثر ٢٠/٢.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٥٨/٧ (٤٠٥٥) .

(٤) الطيالسي . المسند ٢٨/١ ، فتح الباري ٣٥٨/٧ -٣٥٩ .

يصـــيبني شـــيء من الأذى ، وأجلسني أمامه فجعلت أرمي) [١]، فذكر الحديث [٢].

وذكـــر الطيالسي من طريق عيسى بن طلحة عن عائشة قالت : (كـــان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : كان ذلك اليوم كله لطلحة ، قال : كنـــت أول من فاء فرأيت رجلاً يقاتل عن رسول الله ﷺ قال : فقلت : كن طلحـــة ، قلـــت : حيث فاتني يكون رجل من قومي ، وبيني وبينه رجل مـــن المشـــركين فـــإذا هو أبو عبيدة ، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ فقال : دونكمـــا صاحبكما ، يريد طلحة ، فإذا هو قطعت إصبعه ، فأصلحنا من شأنه) [٣].

من قتل من المسلمين يوم أحد :

مـــنهم حمـــزة ، وقد ورد ذكره في باب مفرد [٤]، واليمان والد حذيفـــة ، وورد ذكـــره في آخر باب (إذ همت طائفتان) [٥]، وأنس بن النضـــر ، وعبد الله بن عمرو والد جابر ، ومن المشهورين عبد الله ابن جبـــير أمير الرماة ، وسعد بن الربيع ، ومالك بن سنان والد أبي سعيد ، وأوس بـــن ثابـــت أخو حسان ، وحنظلة بن أبي عامر المعروف بغسيل الملائكـــة ، وخارجـــة بن زيد ابن أبي زهير صهر أبي بكر الصديق ، وعمرو بن الجموح ، ولكل من هؤلاء قصة مشهورة عند أهل المغازي .

---

(١) المســـتدرك مـــع التلخـــيص ٣/٢٦ .ووافقه الذهبي على تصحيحه ، مجمع الزوائد ٦/١١٦.

(٢) فتح الباري ٧/٣٥٩ .

(٣) الطيالسي : المسند ١/٣ ، فتح الباري ٧/٣٦١ .

(٤) باب قتل حمزة بن عبد المطلب ٧/٣٦٧ .

(٥) فتح الباري ٧/٣٥٧ .

(قتل منهم يوم أحد سبعون)

عن كعب بن مالك أن جابر بن عبد الله ﷺ أخبره : (أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ...) (١).

(فكـــان يقـــول : انظروا : أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه) (٢). ولم يصل عليهم .

عـــن عقبة بن عامر : (أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد ...) (٣).

قـــال الشـــافعي فـــي "الأم " جاءت الأخبار كأنها عين من وجوه مـــتواترة أن النبـــي ﷺ لم يصل على قتلى أُحد ، وما روي أنه ﷺ صلى وكـــبر على حمزة سبعين تكبيرة لا يصح ، وقد كان ينبغي لمن عارض بذلك هذه الأحاديث الصحيحة أن يستحي على نفسه (٤).

وأما حديث عقبة بن عامر فقد وقع في نفس الحديث أن ذلك كان بعـــد ثمان سنين ، يعني والمخالف يقول : لا يصلي على القبر إذا طالت المـــدة . وكأنه ﷺ دعا لهم واستغفر لهم حين علم قرب أجله مودعاً لهم بذلك ولا يدل على نسخ الحكم الثابت (٥).اهـ

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٧٤/٧(٤٠٧٩) .

(٢) ابـــن هشام : السيرة النبوية ٩٧/٢-٩٨ ، فتح الباري ٣٧٦/٧ ، و٢٠٩/٣ - ٢١٠ (١٣٤٣).

(٣) صـــحـــيح البخاري مع فتح الباري ٢٠٩/٣ (١٣٤٣) (١٣٤٤) ، ٣٧٦/٧ (٤٠٧٩) .

(٤) الشافعي : الأم ٢٦٧/١ .

(٥) فتح الباري ٢١٠/٣ .

وما أشار إليه من المدة والتوديع قد أخرجه البخاري في " غزوة أحد " من طريق حيوة بن شريح عن يزيد بلفظ : (بعد ثمان سنين كالمودع للحياء والأموات) [1].

قال الماوردي عن احمد : الصلاة على الشهيد أجود ، وإن لم يصلوا عليه لجزأ .

❁❁❁

الراهب المسيحي وتحريضه ضد المسلمين

جعلت نساء قريش [2] يمشين خلال الصفوف ، ليحرضن المقاتلين . وليثرن حماستهم ، وقد خرج راهب مسيحي يدعى (أبو عامر) مع قريش ليفت في عضد جيش المسلمين ، فقد كان أبو عامر من سكان المدينة ، وكان أهل المدينة يجلونه ويحترمونه لما عُرف عنه من التقوى والورع ، ولكن لما وفد النبي على المدينة ، قابله الأنصار مقابلة حماسة ، فحز ذلك في نفس أبي عامر ، وامتلأ غيظاً ، فخرج لتحريض قريش على محمد ، وكان يزعم أنه إذا نادى أهله من الأوس المسلمين ، والذين يحاربون في صف محمد ، استجابوا له ، وانحازوا معه ، ونصروا قريشا ، فخرج فنادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . فأجابه الأوس المسلمون : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق . فعاد يجر ذيول الخيبة .

❁❁❁

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٤٨/٧(٤٠٤٢).

(٢) قال ابن إسحاق كان النساء اللاتي يخرجن مع المشركين يوم أحد خمس عشرة امرأة . وسمّاهن ومنهن هند بنت عتبة – فتح الباري ٣٥٠/٧.

هزيمة قريش أولاً

وكمـا هي العادة ، فقد وقعت منازلات فريدة أولاً ، فقتل حمزة طلحـة حـامل لواء المشركين ، ثم تزاحف ، والتقى الجمعان ، فانقض المسـلمون على الكافرين كليوث كواسر ، وأبدى أبو دجانة ضروباً من الشـجاعة ، وآيـات بينات من الاستبسال ، ومشت قوات المسلمين إلى قـريش ، فاندحرت ، وشاع الاضطراب بين صفوفها ، فقد فغر الموت فـاه لهم ، وسقط حمزة أخيراً صريعاً ، رماه عبدٌ حبشي ، يدعى وحشيا ، استأجرته هند زوجة أبي سفيان لهذا الغرض ، فأرداه . كان المسلمون يقـاتلون بحمـية فائقـة ؛ فسقط سبعة من حاملي لواء قريش مجندلين ، الواحـد إثر الآخر ، فعم الاضطراب ، ولاذ القرشيون بالفرار ، وتعقبهم المسـلمون ، لقد لاح النصر للمسلمين ، ولكن إهمالاً تافهاً أودى بنصر عظـيم ، لقد أهمل الرماة الذين عهد إليهم حماية الممر ، ما صدر إليهم مـن أوامـر مشددة ، فانقلبت الآية ، وتحول ميزان القدر ، رأوا انهزام قـريش وفرارها ، ورأوا المسلمين يتبعونهم ، فشاءوا أن ينطلقوا في أثر المنهزميـن ، ولكن رئيسهم نصحهم بألا يخالفوا أمر رسول الله فعصاه أكثرهم ، وانطلقوا ولم يبق معه إلا نفر قليل .

❁❁❁

ترقُب خالد للموقف والتفافه حَول الجَبَل

كـان خـالد بـن الوليد على فرسان مكة ، وكان يرقب الموقف باهـتمام ، فلمـا رأى الممـر وقد تخلى عنه المدافعون ، التف برجاله المائتيـن حول الجبل ، وشد برجاله على الباقين من الرماة فأجلاهم ، ثم صـاح صيحة أدركت قريش معها أنه دار برجاله وراء جيش المسلمين ، فعـاد مـنهم كل هزيم ، والتأم جمعهم ، وكان تفوق قريش العددي كافياً

لإبـــادة المســـلمين عـــن بكرة أبيهم ، ولكن النبي ﷺ عندما اختار موقفه وجعـــل الجـــبل خلفـــه ، كان يحتاط للهزيمة ، فوضع نصب عينيه أن يحتمى المسلمون بالجبل ، ويعتصموا به إذا دارت عليهم الدائرة .

❁❁❁

أشجع الرجال

بينما كان المسلمون جادين في تعقب العدو المدحور ، كان النبي وطلحـــة وســـعد بـــن أبـــي وقاص في المؤخرة ، فما رأى هجوم خالد وإجـــلاءه الـــرماة مـــن المسلمين ، حتى قدر خطورة الموقف ، وأيقن بـــتعرض أنصاره للهلاك ، فكان أمامه طريقان لا ثالث لهما : إما النجاة بشخصـــه والفرار إلى مكان أمين ، تاركاً أصحابه لمصيرهم المحتوم ، وأمـــا أن ينطلق إليهم ليخلصهم من الخطر الداهم ، معرضاً نفسه للهلاك ؛ فاخـــتار طريق المخاطر . رأى أحابه وقد أطبق أعداؤهم عليهم ، فصاح بهـــم ، الـــتفوا حولـــي ! إني رسول الله ، فما بلغ صوته آذانهم ، حتى اتجهـــوا إلـــيه ، شـــاقين طريقهم في صفوف الأعداء ، ولكن صوته نبه أعـــداءه ؛ ولمـــا كان الغرض الأول من هذه الحروب هو القضاء عليه ، والـــتخلص مـــنه ، أصـــبح الهـــدف الأول لضربات المشركين ، فراح أصـــحابه الذيـــن كـــانوا علـــى استعداد للموت دونه يدافعون عنه دفاع المســـتميتين ، وراحـــوا يســـقطون من حوله الواحد إثر الآخر ، وقتل مصـــعب بـــن عمـــير ، فحسبه الكافرون النبي ، فانتشر خبر قتل النبي انتشار الريح ، فزاد ذلك في ارتباك المسلمين ، وتوقف بعض المسلمين عـــن القـــتال ؛ فـــرآهم أنس بن النضير فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رســـول الله . قـــال : ما تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه .

تجمع المسلمين مرة أخرى ودفاعهم عن النبي ﷺ

أخـذ المسـلمون يشـجع بعضـهم بعضا ، فقويت عزيمتهم ، واسـتردوا شـجاعتهم ، فقـالوا يذودون عن نبيهم الحبيب ، الذي أثخن جـراحا ، وسـقط في حفرة ، وراح أصحابه المخلصون يَذُبُّون عنه ، ويجعلـون من أجسامهم تروساً تقي النبي ، وهاجمهم العدو بشدة وعنف ، ولكـن السـياج الآدمـي كان أمنع من أن يفل ، فإذا ما فتحت ثغرة فيه بسـقوط أحدهم مُجَنْدَلاً ، هَبَّ آخر ليحل مكانه ، وبعد أن أفاق المسلمون مـن هـول الصدمة ، التأم جمعهم من جديد ، وراحوا يقاتلون أعداءهم بعـناد وإصـرار ، قـتالاً رهيـباً لا هوادة فيه ، فكانوا يقابلون الهجوم بهجـوم أعـنف منه وأمر ، هاجمتهم قريش المرة تلو الأخرى ، ولكنها كانت ترد على أعقابها في كل مرة ، فقدت كل أمل في إبادة المسلمين ، وأخـذت سهام أبي طلحة تتطاير منذرة بالموت ، وانكسر في يده سهام ثلاثـة ، وأبلـى سـعد بـلاء عظيماً ؛ فأفرغ كل ما في جعبة النبي ، وراحت سهامه تتلاحق في أبدان الأعداء .

رأت قريش مَنَعَة مركز الرماة ، والشجاعة الفائقة التي لا تهن ، فقررت الانسحاب ، وقد بلغ منها الجهد كل مبلغ .

❁❁❁

حقد قريش والتمثيل بالقتلى

خـاب فأل قريش في محاولتها القضاء على المسلمين ، فراحت تشـبع عواطفهـا الدنيـئة ، بالتمثيل بضحايا المسلمين ، فارتكبت أسوأ الشـناعات ، وأتـت بأبشع الدناءات ، فمثلت بالقتلى ، وجدعت أنوفهم ، وبقـرت هـند بطن حمزة ، وأخرجت كبده ، وجعلت تلوكها بأسنانها ، وأخرجت أمعاءه وتحلت بها في جيدها.

وصاح أبو سفيان : " أفي القوم محمد ؟ " فقال النبي : " لا تجيبوه " .

فصاح : " أفي القوم ابن أبي قحافة ؟" فقال النبي : " لا تجيبوه " .

فصـــاح : " أفي القوم عمر ؟ " فلم يبلغ أذنه إلا صدى صوته ، فصاح : " إن هــؤلاء قــتلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا " . فلم يملك عمر نفسه ، فقـــال : " كذبــت يــا عدو الله ! أبقى الله عليك ما يخزيك " . فصاح أبـــو ســفيان: " اعل هبل " فقال النبي : " أجيبوه " فقالوا : " ما نقول ؟" قال : " قولوا : الله أعلى وأجل " [1].

قـــال أبـــو ســـفيان : " لنا العزى ولا عزى لكم " ، فقال النبي : "أجيـــبوه " .فقـــالوا : " وما نقول ؟" قال : " قولوا ، الله مولانا ولا مولى لكم " فقال أبو سفيان : " يوم بيوم بدر ، الحرب سجال " .

وانصـــرفت قريش ، وقام النبي ﷺ للصلاة ، وطلب أصحابه أن يدعـــو الله ويبـــتهل إليه ، ولإبادة قريش ، ولكنه كان رحيماً حتى على أعدائـــه ، فإنه ابتهل إلى الله وقال ﷺ بخشوع : " اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون " .

۞۞۞

(١) فتح الباري ٦/١٦٣ حديث رقم ٣٠٣٩ مفصلا ومسند أحمد ١/٢٨٧- ٢٨٨.

المدينة وسماعها لنبأ هزيمة المسلمين

لما وقع الاضطراب بين صفوف المسلمين ، عاد بعضهم إلى المدينة بحجة أن جيشهم قد اندحر ، فما علمت نساؤهم أنهم تخلوا عن رسول الله ، حتى ألقين التراب على رءوسهم ، وأسرع بعضهن إلى ميدان القتال ، يستفسرون عما لحق بالنبي ﷺ ، فقد كان اهتمامهن بشخصه أشد من اهتمامهن بأزواجهن . وقد ذكر أنه نعي لامرأة زوجها فقالت ﴿ ..إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ، ونعي إليها أبوها وأخوها فرددت نفس الآية ، ثم سألت : "فما فعل رسول الله ؟ قالوا : " خيراً ، هو بحمد الله كما تحبين" . قالت : " أرونيه حتى انظر إليه" فبان البشر لما رأته ، ونسيت مصابها الفادح الأليم ، . وقد تحملت نساء أخر مصابهن بنفس الجلد والاصطبار . وكان مع المقاتلين بعض نساء المسلمين ، وكانت عائشة بينهم ، يحملن لهم الماء ويسقين جرحاهم .

❁❁❁

جيش المسلمين منتصباً في الميدان

أصبحت المدينة مكشوفة لهجمات العدو ، عقب احتماء المسلمين بالجبل ، ولكن لم يكن لدى أبي سفيان وحاقلة الشجاعة الكافية للهجوم عليها ، وإنهاء المعركة نهاية حاسمة ، إنهم يخشون أن يتمكن المسلمون منهم ، فتكون الطامة الكبرى ، والهزيمة التي لا هزيمة بعدها ، فقفلوا عائدين إلى مكة يجدون في السير ، قاطعين أميالاً عديدة في اليوم الواحد ، وكانوا يتساءلون في الطريق ، "هل انتصروا حقاً ". إنهم لم يغنموا شيئاً . وليس معهم الدليل الذى يقدمونه لأهليهم على انتصارهم ، إنه انتصار غريب حقاً ، ذلك الانتصار الذى لم يتمكنوا فيه من أخذ أسير واحد . لقد تركوا جيش المسلمين منتصباً في الميدان ، فهل هذا نصر ؟ ولم يكن في استطاعتهم أن يميلوا على المدينة ، على الرغم من خلوها من المدافعين .

فهل يعد هذا ظفراً ؟ كانت هذه الأسئلة بينهم وهم بالطريق ، فاقترح بعضهم أن يعودوا أدراجهم ليفصلوا بينهم وبين محمد ولكن خانتهم شجاعتهم ، فقد ترامت إليهم الأخبار بأن النبى ﷺ يجد فى أثرهم ، وقد ورد فى القرآن : ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥٣) سورة آل عمران لما كان الغد من يوم أحد ، خرج النبى ﷺ يطلب قريشاً ، وانطلق حتى بلغ حمراء الأسد ، على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وبلغ أبا سفيان أن المسلمين يتعقبونه ، فرأى أن السلامة أولى ، وأمعن فى الفرار .

۞۞۞

غزوة حمراء الأسد :

عـن عائشـة ﵂ : ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]، قالـت لعروة : يا ابن أختي ، كان أبـوك منهم : الزبير وأبو بكر ، (لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا ، قال : من يذهب في إثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً . قال :كان فيهم أبو بكر والزبير)[2].

قـال ابن إسحاق : كان أحد يوم السبت للنصف من شوال ، فلما كـان الغـد يوم الأحد سادس عشر شوال أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو ،وأن لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس ، فاستأذنه جابـر بن عبد الله في الخروج معه فأذن له ، وإنما خرج مرهباً للعدو ، وليظنـوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم ، فلما بلغ حمراء

---

(١) الآية (١٧٢) ، من سورة آل عمران .

(٢) فتح الباري ٣٧٣/٧ .

الأسـد [1]، لقيه سعيد بن أبي معبد الخزاعي فيما حدثني عبد الله بن أبي بكـر ، فعزاه بمصاب أصحابه ، فأعلمه أنه لقي أبا سفيان ومن معه وهم بالـروحاء [2] وقد تلوموا في أنفسهم وقالوا : أصبنا جل أصحاب محمد وأشـرافهم وانصـرفنا قبل أن نستأصلهم ، وهموا بالعود إلى المدينة ، فأخـبرهم معـبد أن محمداً قد خرج في طلبكم في جمع لم أر مثله ممن تخلف عنه بالمدينة ، قال : فثناهم ذلك عن رأيهم فرجعوا إلى مكة [3].

❁❁❁

المسلمون لم ينهزموا فى أُحد لكنهم تجرعوا كأس البلاء

إن استتساخ مما لا شك فيه أنه قد أصابهم بلاء عظيم . ومما لا شك فيه أيضاً أن قريشاً قد خاب أملها . فهل ورد فى التاريخ ذكر انتصار فريق وعدوه لا يزال قائماً فى الميدان لم يفر ولم يسلم ، وعودة الجيش المظفر إلى قواعده وليس معه أسير واحد ؟ وأن الجيش المهزوم لا يلبث أن يقتفى أثر الجيش الغالب فى صبيحة اليوم الثانى للمعركة ؟ وأن المنتصرين يلوذون بالفرار عندما يبلغهم أن عدوهم المهزوم يطلبهم ؟ لا شك أن المسلمين تجرعوا كأس البلاء حتى الثمالة ، فقد جرح نبيهم جرحاً بليغاً ، وطارت إشاعة بأنه قتل ، ومعنى هذا انطفاء جذوره الإسلام ، لقد كان من الضرورى أن يمتحن النبى ﷺ هذا الامتحان القاسى ليكون قدوة للأجيال القادمة فى الشجاعة والأمل ، ولكى يعلمهم الثقة بالله فى لحظات الشدة وضياع الأمل ، فللعدو أن يزهو بما نال

---

(١) تعرف حمراء الأسد الآن بحمراء نملى جنوب غرب ذو الحليفة .

(٢) محطة على بعد ٧٥ كم غرب المدينة ، لا تزال معروفة بهذا الاسم .

(٣) ابـن هشـام : السيرة النبوية ٢/١٠٠- ١٠٢ ، جامع البيان ٤/١٧٧ ، فتح الباري ٧/٣٧٣- ٣٧٤ .

وليعتبر انتصار انحاراً للإسلام ، ولكن فلتطمئن أفئدة المؤمنين ، فالإسلام باق لن يموت ومهما اشتدت الكروب ، فسيلوح النصر المبين .

آثار أحد فى قبائل العرب

تركت موقعة أحد أثراً سيئاً فى قبائل العرب ، فراحوا يعارضون الإسلام ويناوئونه جهراً ، ألم ترد قريش أن تمحق هذا الدين محقاً ولولا ذلك ما كلفت نفسها مؤونة هذه الحملة الضخمة ، فلما وثقت القبائل من عداء قريش وتفوقها ، بدأ كيدها وقد كان مستوراً حتى الآن ، لقد حسبوا أن نور الإسلام قد خبأ ، فلا ينبغي لهم الوقوف بعيداً دون أن يكون لهم شرف الاشتراك فى اقتلاع جذوره واستئصاله ، فراحت القبائل المختلفة تعد العدة للبطش بالمسلمين .

❁❁❁

الإجراءات التى أخذت لحماية المسلمين

كانت الثقافة الروحية هى رسالة النبى ﷺ الأولى ، وما كان يمكن تحقيق هذه الرسالة النبيلة ، إلا عن طريق الفئة القليلة النبيلة المؤمنة التى هيأها النبى ﷺ لهذا الغرض . لقد أضحت حياة هؤلاء النفر الذين كرسوا حياتهم لتطهير روح الإنسانية فى خطر ، فكان على النبى ﷺ أن يتخذ جميع الإجراءات الممكنة لحماية هذه الفئة ، حماية للمثل الأعلى الذى وضعه نصب عينيه ، وفضلاً عن ذلك ، فإن النبى ﷺ كان رئيس هذه الفئة ، وهو بهذا الوصف مسئول عن إسعادهم وحمايتهم ، فما ينبغى للزعيم أن يقبل الزعامة لما تجلبه من مزايا ، بل عليه أن يتحمل المسئوليات المضنية والأعباء الجسيمة التى تجرها عليه تلك الزعامة وإن النبى ﷺ لخير قدوة لمن شاء أن يتولى أمور الناس ، أضف إلى ذلك أن واجبه الإنساني يحتم عليه أن يفكر فى دفع الاعتداء عن أنصاره ، واتخاذ التدابير اللازمة لضمان رفاهيتهم وسعادتهم .

لقد وجد النبى ﷺ أن أنصاره محفوفون بالأعداء من كل جانب ، وكانت حياتهم فى خطر دائم ، فنجاهم من الأخطار جميعها ببعد نظره ، وتضحيته بنفسه ، وعقد على رأسهم أكاليل النصر والظفر ، ولو لم يكن لنبى حسنة غير هذه ، لكان ذلك كافياً لتبوئه مركزاً سامياً فريداً ، لا نظير له فى تاريخ الإنسانية جمعاء ، وإن النجاح الذى صادفه النبى ﷺ العظيم فى بناء أمته ، على الرغم من الصعوبات الهائلة التى وقفت فى سبيله ، لا نظير له فى بناء الشعوب.

❁❁❁

مؤامرات اليهود مع قريش وقلق المسلمين

أشركت اليهودية فى المدينة عقب غزوة أحد فى المؤامرات القرشية ، التى كانت تُدَبر للمسلمين ، على الرغم من عهدهم ، واتضحت عداوة المنافقين و فقر رأيهم على النيل من المسلمين فى كل فرصة ، واعتزمت القبائل العربية أن تطعن الإسلام الطعنة القاتلة ، حاسبة أنه على شفا الانهيار ؛ وشعر المسلمون بالخطر فى المدينة وخارجها ، وسرت إشاعة بالتأهب للهجوم على المدينة ، فكان على المسلمين أن يتسلحوا أينما ساروا ، وقد ورد فى السير أنهم ما كانوا ينزعون سلاحهم حتى فى الليل ، وقد أجهدهم فى آخر الأمر هذا القلق الدائم ، ونفذ صبرهم ، ففاتحوا النبى ﷺ فى الأمر ، فطمأنهم وسرى عنهم ، وأكد لهم أن نصر الله قريب ، وقد شاركهم النبى ﷺ محنتهم ، واتخذ الاحتياطات لإحباط كل هجوم .

وفى الصباح الباكر من يوم كان ليله دامساً ، سمعت جلبة ، فحسب المسلمون أن العدو أغار عليهم ، فنفروا للدفاع عن المدينة ، ولكنهم رأوا النبى ﷺ يعود على ظهر جواد عرى ، فقد قام الاستصلاح

فى ضواحى المدينة وأخبر ألا خطر هناك ، فلم يكن النبى ﷺ رئيساً حازماً عاقلاً فحسب ، كان جندياً شجاعاً لا يهاب المخاطر .

غزوة بئر معونة :

بــئر معونة [1]: موضع في بلاد هذيل بين مكة وعسفان ، وهذه الوقعــة تعــرف بسرية القُرَّاء ، وكانت مع بني رعل وذكوان ، كما في حديث أنس ﷺ [2].

عن أنس ﷺ قال : (بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم القــراء ، فعرض لهم حيان من بني سليم رعل وذكران عند بئر يقال لها بئر معونة ...) [3].

وقــد أوضح ابن إسحاق ذلك قال : (قدم أبو براء عامر بن مالك المعــروف بملاعــب الأسنة على رسول الله ﷺ ، فعرض عليه الإسلام فلــم يسلم ولم يبعد ، وقال : يا محمد! لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد رجوت أن يستجيبوا لك وأنا جار لهم ، فبعث المنذر بن عمرو في أربعين رجلاً منهم : الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان ، ونافع ابــن بديل بن ورقاء ، وعروة بن أسماء ، وعامر بن فهيرة وغيرهم من خيار المسلمين) [4].

(يقــال لهــم القراء) كانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، ويــتعلمون ، فعرض لهم حيان – تثنية حي – ،أي جماعة من بني سليم : أن رعلاً وذكروان وعصية .

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٧٨/٧.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٥٨/٧(٤٠٩٠)، ٣٧٩/٧ .

(٣) صــحيح البخاري مع فتح الباري ٣٨٥/٤ -٣٨٦ (٤٠٨٨-٤٠٨٩-٤٠٩٠ - ٤٠٩١) .

(٤) ابن هشام ١٨٤/٢ ، البيهقي : الدلائل ٣٣٨/٣ - ٣٣٩ .

وفي رواية إسحاق بن أبي طلحة : (عن أنس أن النبي ﷺ بعث خالــه أخـــا أم سليم في سبعين راكباً [١] ، ولما طعن حرام بن ملحان – وكـــان خالــه – [٢]، وحرام خال انس من الرضاعة ، ويجوز ان يكون من جهة النسب [٣]، قال : الله أكبر فزت ورَبّ الكعبة .

(فقتلوهم إلا رجلاً أعرج صعد الجبل) قال همام:(وآخر معه) [٤]، وفـــي روايـــة الإسماعيلي من هذا الوجه : (فقتلوا أصحابه غير الأعرج ، وكان في رأس الجبل) .

فقتل عامر بن فهيرة يوم بئر معونة .

وذكـــر الواقـــدي في المغازي قال : (وبعث النبي ﷺ المنذر بن عمـــرو الســـاعدي إلـــى بئر معونة ، وبعث معه المطلب السلمي ليدلهم علـــى الطـــريق ، فقتل المنذر بن عمرو وأصحابه ، إلا عمرو بن أمية فإنهم أسروه واستحيوه) [٥].

وفـــي رواية الواقدي (أن عامر بن الطفيل قال لعمرو بن أمية : هـــل تعـــرف أصحابك ؟ قال : نعم ، فطاف في القتلى فجعل يسأله عن أنسابهم) .

فأتـــي النبـــي ﷺ خبرهم كما جاء ذلك في حديث أنس أن الله أخبره بذلـــك علـــى لســـان جبريل [٦]، وأصيب فيهم يومئذ عروة بن أسماء بنت الصلت ابن أبي حبيب بن حارثة السلمي ، حليف بن عمرو بن عوف [٧].

---

(١) الحديث (٤٠٩١) فتح الباري .

(٢) الحديث (٤٠٩٢) فتح الباري .

(٣) الكرماني ، شرح صحيح البخاري ٢٠/١٦ ، فتح الباري ٣٨٧/٧ .

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري ١٩/٦؛ ٢٠٨١ .

(٥) الواقدي : المغازي ٣٤٧/١ .

(٦) ابن سعد ٥٢/٢ .

(٧) فتح الباري ٣٩٠/٧- ٣٩١ .

فسمي عروة بن الزبير به وكان بين قتل عروة بن أسماء ومولد عروة بن الزبير بضعة عشر يوماً .

وقد بين ابن إسحاق في مغازية أصحاب الطائفتين ، وأن أصحاب العهد هم بنو عامر ، ورأسهم : أبو براء عامر بن مالك بن جعفر المعروف بملاعب الأسنة ، وأن الطائفة الأخرى من بني سليم ، وأن عامر بن الطفيل وهو ابن أخي ملاعب الأسنة أراد الغدر بأصحاب النبي ﷺ ، فدعا بني عامر إلى قتالهم ، فامتنعوا وقالوا : لا تخفر ذمة أبي براء ، فاستصرخ عليهم عصية وذكوان من بني سليم ، فأطاعوه وقتلوهم ، وذكر لحسَّان شعراً فيه أبا براء ويحرضه على قتال عامر بن الطفيل فيما صنع فيه ، فعمد ربيعة بن أبي براء إلى عامر بن الطفيل فطعنه فأرداه ، فقال له عامر بن الطفيل : إن عشت نظرت في أمري ، وإن مت فدمي لعمي ، ومات أبو براء عقب ذلك أسفاً على ما صنع به عامر بن الطفيل ، وعاش عامر بن الطفيل بعد ذلك ومات بدعاء النبي ﷺ [1].

وقنت رسول الله ﷺ في صلاة الفجر .. وقال : " إن عصية عصت الله ورسوله " [2] وهي بطن من بني سُلَيْم .

بئر معونة وخيانة بعض المارقين [3]

كانت المدينة فى قلق مستمر ، فكان على المسلمين أن يبقوا ساهرين دواماً ، وقد اتخذت الاحتياطات لقتل الفتن فى مهدها ، فإذا ما بلغهم أن مؤامرة تبيت لهم فى الخفاء ، كانا يرسلون سرية لمداهمة القوم ،

---

(١) ابن هشام ٢/١٨٣-١٨٩، فتح الباري ٧/٣٩١- ٣٩٢ .

(٢) فتح الباري ٧/٣٩٢.

(٣) فتح البارى ٧ /٣٧٨.

وكتم أنفاس المؤامرة قبل أن يتفاقم أمرها ، ويعظم شأنها ، وهكذا تلافى المسلمون ما قد يصبح حرباً عواناً عليهم ، بقليل من الاحتياطي ، التى اتخذت فى الوقت المناسب .

❁❁❁

فرية النقاد المعادين للإسلام

إن النقاد المعادين يتهمون الإسلام بأنه هدى الناس بحد السيف ، وهو ادعاء يجانب الحقيقة وينافيها ، فلم يحدث قط أن هدى السيف إنساناً ، ولم يرد قط ذكر هداية واحدة كانت نتيجة حملة أوفدت .

كان النبى ﷺ يعتمد فى نشر دينه على المتفقهين فى الدين ؟ وهم من حفظوا القرآن ، فكانوا ينشرون تعاليم الإسلام بين القبائل المختلفة ، وكان بعض الخونة المارقين يستدعون الحفاظ بقصد التفقه فى الدين ، فإذا خلوا بهم اغتالوا غدراً . وحدث حادث وحشى كهذا ، فى بئر معونة ، فى صفر من السنة الرابعة للهجرة ، فقدم أبو براء سيد قبائل بنى عامر وبنى سليم إلى النبى ﷺ ومعه هدايا ، وطلب منه أن يبعث بعض رجال من أصحابه إلى أهل نجد ليدعوهم إلى الإسلام ، فخاف محمد على أصحابه أهل نجد ، وخشى أن يغدروا بهم فرفض الهدايا ، ورفض أن يبعث رجاله ، ولكن أبا براء أخبارهم ، وضمن سلامتهم ، فبعث النبى ﷺ معه سبعين رجلاً من خيار المسلمين (١) ، فلما وصلوا إلى بئر معونة ، وجدوا أنفسهم محوطين بجيش كبير ، وضربت أعناقهم الرجال الأبرار ، الذين كانوا يحملون رسالة السماء ، ولم يفر منهم إلا رجل واحد هو عمرو بن أمية . الذى حمل الخبر الفاجع إلى النبى ﷺ ، فوجد لهم أشد الوجد ، وحزن عليهم أعمق الحزن .

---

(١) فتح البارى ٤/٣٨٥ الأحاديث ٤٠٨٨ إلى الحديث ٤٠٩١.

غزوة ذات الرقاع [1]:

هـــذه الغزوة اختلف فيها متى كانت ، واختلف في سبب تسميتها بذلك وجنح البخاري إلى أنها كانت بعد خيبر ، واستدل لذلك بأمور [2]. والبخاري مـــع كونـــه يرى أنها كانت بعد خيبر إلا أنه مع ذلك ذكرها قبل خيبر ، فـــلا أدري هل تعمد ذلك تسليماً لأصحاب المغازي أنها كانت قبلها ، أو إشـــارة إلـــى احتمال أن تكون ذات الرقاع إسماً لغزوتين مختلفتين كما أشـــار إلـــى ذلك البيهقي [3]. وأصحاب المغازي مع جزمهم بأنها كانت قـــبل خيـــبر فهـــم مختلفون في زمانها ، فابن إسحاق ذكر أنها بعد بني النضـــير وقـــبل الخندق سنة أربع ، حيث قال : أقام رسول الله ﷺ بعد غزوة بني النضير شهر ربيع وبعض جمادى - يعني من سنته - وغزا نجـــداً يريد محارب وبني ثعلبة من غطفان ، حتى نزل نخلاً وهي غزوة ذات الرقاع [4].

وعـــند ابـــن سعد [5]، وابن حبان [6] أنها كانت في المحرم سنة خمس ، (نزل) النبي ﷺ (نخلاً) مكان من المدينة على يومين ، وهو بواد يقال له شَـــرْخ وبذلـــك الوادي طوائف من قيس من بني فزارة وأنمار وأشجع ، كما ذكره أبو عبيد البكري[7].

---

(1) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٤١٦ .

(2) فتح الباري ٧/٤١٧ .

(3) البيهقي : الدلائل ٣/٣٧٢ .

(4) ابن هشام ٢/٢٠٣.

(5) الطبقات ٢/٦١.

(6) ابن حبان : السيرة النبوية ص٢٤٩.

(7) الـ بكري : معجم ما استعجم ٤/١٣٠٣ ، ويسمى الآن : (النخيل) يبعد عن الحناكية شمالاً (٢٠كيلاً) والحناكية تبعد عن المدينة شرقاً (٩٥كيلاً) .

(وهي بعد خيبر ، لأن أبا موسى جاء بعد خيبر) استدل البخاري بهذا ، كما استدل بحديث أبي موسى في الباب [1]، وهو استدلال صحيح ، وقد ورد في باب غزوة خيبر الدليل على أن أبا موسى إنما قدم من الحبشة بعد فتح خيبر وفيه في حديث طويل : (قال أبو موسى : وافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر) [2].

قال أبو موسى : سميت ذات الرقاع لما لقوا في أرجلهم من الخرق وأهل المغازي ذكروا في سبب تسميتها بذلك أموراً غير هذا ، فنقل عن ابن هشام قوله : سميت بذلك لأنهم رقعوا فيها راياتهم ، وقيل : بشجر بذلك الموضع يقال له ذات الرقاع [3]، وقيل : بل لأن الأرض التي كانوا نزلوا عليها كانت ذات ألوان تشبه الرقاع ، وقيل : لأن خيلهم كان بها سواد وبياض ، كما قاله ابن حبان [4]، وقال الواقدي : سميت بجبل هناك فيه بقع [5].

وقال عبد الله بن رجاء .. عن جابر : (أن النبي ﷺ بأصحابه في الخوف) زاد السراج[6] : (أربع ركعات ، صلى بهم ركعتين ، ثم ذهبوا ، ثم جاء أولئك فصلى بهم ركعتين) .

في غزة السابعة أي غزوة السفرة السابعة التي وقع فيها قتال والتنصيص على أنها سابع غزوة من غزوات النبي ﷺ فيه تأييد لما

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٤١٧/٧ ، ٤١٢٨ و ٤٨٤/٧، رقم ٤٢٣٠

(٢) عيون الأثر ٧٤/٢ .

(٣) ابن هشام ٢٠٤/٢ ، فتح الباري ٤١٩/٧ .

(٤) ابن حبان : الثقات ٢٥٨/١ .

(٥) الواقدي : المغازي ٩٥/١ .

(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري ٤١٦/٧ ، ٤١٢٥ .

ذهـب إلـيه الـبخاري مـن أنها كانت بعد خيبر ، فإنه إن كان المراد الغـزوات التي خرج النبي ﷺ فيها بنفسه مطلقاً وإن لم يقاتل فإن السابعة مـنها تقع قبل أحد ، فتعين أن تكون ذات الرقاع بعد بني قريظة ، فتعين أن المـراد الغزوات التي وقع فيها القتال ، والأولى منها بدر والثانية أُحُد ، والثالـثة الخـندق ، والرابعة قريظة ن والخامسة المريسيع ، والسادسة خيـبر ، فـيلزم مـن هذا أن تكون ذات الرقاع بعد خيبر [1] للتصيص على انها السابعة ، فالمراد تاريخ الواقعة لا عدد المغازي .

غزوة بني المُصْطَلِق :

وهـي غـزوة المريسيع [2]، المُصطلق لقب واسمه : جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة ، بطن من بني خزاعة [3].

والمريسـيع هو ماء لبني خزاعة ، بينه وبين الفرع مسيرة يوم [4]، وروي الطبرانـي منحديث سفيان بن وبرة قال : (كنا مع النبي ﷺ في غزوة المريسيع غزوة بني المصطلق) [5].

وقال ابن إسحاق : وذلك سنة ست [6].

قـال الحاكم في " الإكليل" : قال عروة وغيره أنها كانت في سنة خمـس ويؤيـده ما ثبت في حديث الإفك [7] أن سعد بن معاذ تنازع هو

---

(١) فتح الباري ٧/٤١٩ .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٤٢٨ .

(٣) الاشتقاق ٢/٤٧٦ ، فتح الباري ٦/٥٤٧- ٥٤٨ ، ٥/١٧٠- ١٧١ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ٥/١١٨ ، والبكري : معجم ما استعجم ٤/١٢٢٠.

(٥) فتح الباري ٧/٤٣٠.

(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٤٢٨ .

(٧) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٤٣١ -٤٣٥ ، ٤١٤١.

وســعد ابن عبادة في أصحاب الإفك ، وسعد بن معاذ مات أيام قريظة ، وكانــت سنة خمس على الصحيح فيظهر أن المريسيع كانت سنة خمس فــي شعبان ، لتكون قد وقعت قبل الخندق ، لأن الخندق كانت في شوال ســنة خمــس أيضــاً ، فتكون بعدها ، فيكون سعد بن معاذ موجوداً في المريســيع ، ورُمــي بعــد ذلك بسهم في الخندق ومات من جراحته في قريظة .

ويؤيــده أيضــاً أن حديث الإفك كان سنة خمس ، إذ الحديث فيه التصــريح بأن القصة وقعت بعد نزول الحجاب ، والحجاب كان في ذي القعــدة ســنة أربع عند جماعة ، فيكون المريسيع بعد ذلك ، فيرجع أنها سنة خمس .

سبب الغزوة :

ذكر ابن إسحاق عن مشايخه عاصم بن عمر بن قتاده وغيره أنه بلغــه أن بني المصطلق يجمعون له ، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار ، خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له : المريسيع قريباً من الساحل ، فزاحف الناس واقتتلوا فهزمهم الله ، وقتل منهم ، ونفل رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم وأموالهم [1].

وذكــر ابن سعد[2] : أن الحارث كان جمع جموعاً ، وأرسل عيناً تأتــيه بخــبر المسلمين ن فظفروا به فقتلوه ، فلما بلغه ذلك هلع وتفرق الجمــع ، وانــتهى النبي ﷺ إلى الماء وهو المريسيع ، فصف أصحابه

---

(١) ابن هشام ٢/٢٩٠، عيون الأثر ٢/١٢٣ ، فتح الباري ٧/٤٣٠ .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/٦٣- ٦٤ .

للقـــتال ، ورموهم بالنبل ، ثم حملوا عليهم حملة واحدة ، فما أفلت منهم إنسان ، بل قتل منهم عشرة ، وأسر الباقون رجالاً ونساءً .

وعــن ابــن محــيريز قال : (رأيت أبا سعيد ﷺ فسألته فقال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق ...) [1].

وأصـــاب يومـــئذ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ابن الحارث بن مالك بن المصطلق ، وكان أبوها سيد قومه ، وقد أسلم بعد ذلك .

حديث الإفك :

عن عائشة (كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه ..) [2].

وكـــان الرســـول إذا أراد سفراً اصطحب معه إدى نسائه بطريق القـــرعة وكـــن يرحلـــن فـــي هودج فوقه مظلة مشدودة على إطار من الخـــوص والجريد ، وكان الهودج يشد إلى سنام البعير فكان الجالس فيه يختـــي تماماً عن الأنظار ، ولا يعلم ما إذا كان أحد في الهودج أو كان خالياً ما لم ترفع المظلة .

وكـــان الرســـول فـــي طريق عودته إلى المدينة من غزوة بني المصـــطلق قـــد شـــغله أمر المنافقين فأمر بالرحيل ي غطش الظلام ، وكـــان معه من نسائه السيدة عائشة ، ولما استيقظت خرجت إلى الخلاء لـــبعض حاجاتهـــا ، وبينما هي عائدة افتقدت قلادتها ، وكانت من العقود الثميـــنة ، فلـــم تجدها في عنقها ، فذهبت تلتمسها واشتغلت بالبحث عنها دون أن تخطـــر أحـــداً من أهلها بذلك غفلة منها ولا شك عما يمكن أن يترتـــب على ذلك من نتائج ، ما كان ذلك إلا لصغر سنها وعدم تجاربها

---

(١) صحيح البخاري مع تح الباري ١٧٠/٥ رقم ٢٥٤١- ٢٥٤٢ .

(٢) صـــحيح البخاري مع فتح الباري ٤٣١/٧- ٤٣٥ ، رقم ٤١٤١، ٢٦٩/٥- ٢٧٢ رقم ٢٦٦١ ، ٤٥٥/٨ -٤٨٢ رقم ٤٧٥٠ ، ٤٣٥/٧.

للأمـــور ، وقد وقع لها بعد ذلك أن ضاع منها العقد مرة أخرى فأعلمت الرســـول بأمـــره ، فأقام الناس ، وتلبث الجيش زمناً على غير ماء حتى وجدته ، وكانت سبباً في نزول آية التيمم [1].

كـــان مـــن الصـــعب رؤيـــة قلادة في سواد الليل بين الحصى والأعشـــاب ، فلـــم تعثر عليها إلا في نور الصباح فثبتتها حول عنقها ، وعـــادت فوجـــدت هودجهـــا قـــد رفع وشد إلى بعيرة ، وكانت عائشة صـــغيرة خفيفة فحسبوا أنها فيه ، فلما تحرك الركب انطلق الجيش وهم يقـــودون بعـــيراً لا حمـــل فـــيه وفي لحظة رهيبة أحست عائشة بأنها أصـــبحت مـــنفردة في صحراء قاحلة مترامية عرضة للذئاب المفترسة والوحـــوش الكاســـرة والموت جوعاً أو عطشاً أو احتراقاً بأشعة الشمس الملتهـــبة أو الأعاصـــير الوغرة ، فمدت نظرها إلى الفضاء الواسع فلم تجـــد فيه أثراً لقومها ، وما كان يجدي الذعر ، وما كان هناك من فائدة فـــي محاولـــتها اللحاق بقافلتها ، فضلت أن تبقى في المكان الذي رؤيت فـــيه آخـــر مـــرة ، وأنهـــا لتأمل أن يعود القوم إليها إذا ما افتقدوها فلم يجدوهـــا فـــي الهودج ، ولما ارتفعت حرارة النهار التت بجلبابها وآوت إلى ظل موقنة بأن الله لن يضيعها .

نعـــم لقـــد صدق الله إيمانها ، فرعي زوج محمد بنت أبي بكر ، وحفظها كما حفظ من قبل زوج إبراهيم في بيداء مكة .

كان صفوان ابن المعطل قد تخلف عن الجيش لأجل ان يلتقط ما يسقط من المتاع في عماية الليل ؛ وكثيراً ما كان النبي يعهد إليه بذلك ، لأنـــه كان ثقيل النوم فلا يستيقظ حتى يأخذ الجيش في السير ، وقد شكته

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٤٨/٣.

لمسراته إلى النبي ﷺ لأنه ينام ولا يصلي الصبح إلا بعد طلوع الشمس ، رأى شبحاً فاقترب منه . فعرف أنه أم المؤمنين إذ كان يعرفها قبل الحجاب فاسترجع الله وأخذه هول الموقف فلزم الصمت ، قالت عائشة : والله ما كلمني كلمة وما سمعت منه كلمة ثم هوى براحلته وركبت ؛ وأخذ بخطام البعير مسرعاً حتى أدرك الجيش في نحر الظهيرة [1].

ومن هنا يبدأ حديث الإفك فإن عبد الله بن أبي سلول هذا المنافق الشرير عندما قدم المدينة أخذ يذيع بأن عائشة تخلفت مع صفوان بن المعطل ولم يتورع ابن أبي سلول عن رجم المحصنات الغافلات بالباطل ؛ ولم يمسك لسانه عن الخوض في وشايات الدنس التي لا تجمل بمروءة الكرام ، ولم يكن من أخلاقه ما يعصمه أن يكذب وأن ينافق وأن يداهن وان يصطنع الوشاية ، ويلغ في الأعراض ويجمع الحديث ويفرقه ، وينشره ويطويه لأنه مطبوع على النفاق مشهور به بين أصحابه وخصومه على سواء كان زعماء الخزرج بالمدينة وكان ينافس زعماء الأوس بها في إرضاء النبي والتزلف إليه ثم يخلو بأعداء الإسلام فيؤلبهم على المسلمين ، ويسول لهم قتل النبي ، ويوغر صدورهم على الدين وعلى أتباعه[2].

ومع أن الرسول ﷺ كان قد عرف ظروف الحادث ، ولم يشارك ابن أبي ريبة إلا المنافقون ، وقلة من سكان المدينة ، ويعلم أن الأنبياء مصونون عن أن يلحقهم ما يزري بمقامهم ، ويضعف كرامتهم غير أن

---

(١) زاد المعاد ١٥٨/٢ ، وإنسان العيون ٣١٠/٢ .

(٢) الصديقة بنت الصديق للعقاد .

كثرة اللغط حول موضوع يتعلق بعرضه وبشر أحب الناس إليه أزعجه أيما إزعاج وعراه من الهم ما جعله في حال جفوة مع عائشة [1].

كانت عائشة فتاة صغيرة لم تسول لها نفسها البريئة النقية ان تكر في إثم ، وكان النبي يحبها حباً شديداً ؛ وقد أعرض الآن عنها ، ولم تفطن إلي السبب في سرعة . وقد شغلتها حمى ألزمتها الفراش ، ورأت أن تستأذن الرسول لتمرض في بيت أبويها فأذن لها ، ورابها من الرسول أنها لم تر منه اللطف الذي كانت تراه منه حين تشتكي ، ولكنها لم تشعر بشيء من التهمة حتى نقهت ، وخاض الناس في هذا الحديث ، وكان منهم مسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوجة الرسول التي كانت تنافس عائشة ، وما كانت زينب تعتقد في حديث الإفك – كما أشارت إلى ذلك فيما بعد – ولكنها تركت أختها تجري بالحديث كيفما يكون .

أما أبو بكر فقد أغلق الباب عليه وراح يقرأ القرآن وقامت زوجه أم رومان تطبب عائشة دون أن تشعرها بما يجري من حديث .

ومع أن أبويها كانا على ثقة من براءتها ، وأن ما بدا عليهما من الغم لم يكن لريبة لحقتها ، وإنما هو التأذي لما أصيبوا به حتى لقد قال أبو بكر : والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد ان أعزنا الله بالإسلام .

وكان الرسول يزورها قليلاً ولم يجلس إليها ويكتفي بالسؤال عنها لماما وذات يوم أفضت إليها أم مسطح بما يدور على الألسن ، فكانت مفاجأة أذهلتها وازداد عليها المرض لا يرقأ لها دمع على الرغم من مواساة أبويها .

---

(١) زاد المعاد ١٥٩/٢ .

وكـــان من عادة الرسول أن يعقد مجلساً من أصحابه كلما حزبه أمر من الأمور ليستشيرهم ، ولم يدع فيه هذه المرة أبا بكر .

أمـــا عمر فقال من زوجها لك يا رسول الله ؟ قال : " الله تعالى " قال : " أتظن أن الله دلس عليك فيها ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم " .

وقال عثمان : " يا رسول الله إن هذه الإشاعة من أعمال المنافقين "

وقال أسامة بن زيد " يا رسول الله والله ما نعلم بهن إلا خيراً " .

أما على بن أبي طالب فقال :

" يـــا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك[1] فدعا رسول الله بريرة وسألها فقالت :

" والله ما أعلم عنها إلا خيراً وما أعيب عليها شيئاً إلا أنها كانت تـــنام عـــن عجينها فتأتي الداجن فتأكله والله لهي أطيب من الذهب ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله " فعجب الناس من فقهها [2].

ولـــم يقصد على بهذا إيذاء عائشة ، ولا الشك في شأنها ، وإنما أراد إزالـــة ما رآه على النبي من القلق والهم ، وكان النبي شديد الغيرة فـــرأى انـــه إذا فارقها زال همه إلى أن يتحقق براءتها وفي هذا الوقت كـــان صـــفوان يطوف بالمدينة ويقسم بالبراءة وقام رسول الله من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي وخطب قائلاً :

---

(١) مـــسند هذه الحادثة لم تصرح عائشة باسم على كرم الله وجهه حتى حين وفاة رســـول الله ﷺ قالـــت : رأيت النبي بين العباس ورجل (تعني على بن أبي طالب) ولما بويع بالخلافة بعد ثلاثين سنة عارضته بشدة .

(٢) كانـــت بريرة تخدم عائشة إما قبل شرائها لها وغما بعده وقبل عتقها لها لأن بريرة عتقت بعد الفتح – إنسان العيون ٣١٦/٢ .

" مــن يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي ويقول عليهن غير الحــق ، والله ما علمت منهن إلا خيراً ، ويقولون ذلك عن رجل والله ما علمت منه إلا خيراً " .

أمــا الجفوة التي بدت من الرسول نحو عائشة ، وعدم ملاطفتها كعادتــه وهـــي في هذا الوقت أحوج ما تكون إلى الملاطفة ، وإلى من يــزيل بعض همومها فلعل ذلك راجع إلى ضيق صدره بكلام الأفاكين ، مــع كونهــا أخطأت التصرف فيما يجب بشأن العقد من وجوب إخباره حتى يطلبه ، ولا يرتحل الجيش ويتركها .

أمــا بحــث الرسول واستشارة بعض الصحابة فلأن الرسول لم يعد المشورة في كل أعماله بخاصة الأمور الهامة ، ولشدة غيرته لم يترك الأمر لحســن الظن ن مع كونه أراد أن لا يبقى في براءتها أي خفاء عند أحد من الصــحابة ، وقــد مكــث النبي شهراً لا يوحى إليه حتى نضجت القضية ، واستشــرت النفوس إلى ما يوحيه الله إلى رسوله في شأنها ، وكانت فرصة لإظهــار المنافقيــن الذيــن يؤذون رسول الله ويتربصون بالإسلام ويريدون التفرقة بينه وبين أصحابه فانكشف خباياهم وظهر كفرهم .

- ذهــب النبـــي إلى عائشة فوجدها مع والديها ، وهي تبكي وأمها وأبوهــا يبكيان ويقول أبو بكر : والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف يقال لنا هذا في الإسلام ثم جلس النبيﷺ إلى جوارها على حصير فحمد الله وأثــنى علــيه ثم قال : "يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فــإن كنــت اقترفــت سوءاً فتوبي إلى الله " وإلى هنا ندع عائشة تكمل الحديــث فإنهــا تعرف عنه أكثر من أي فرد آخر قال عائشة : " فو الله لقــد تقلــص دمعي حتى ما أحس منه شيئاً ، وانتظرت أبواي أن يجيباه

فلـــم يعلا ، فقلت ألا تجيباه ، فقالا والله ما ندري بم نجيبه وما نعلم أهل البيت أصيبوا بمثل ما أصيب به أبو بكر هذه الأيام .

فلما استعجما على بكيت ثم قلت والله ما أتوب إلى الله بما ذكرت أبـــداً ولئـــن أنكرت لا تصدقوني ، ثم التمست اسم (يعقوب) فلم أجده قلـــت : ولـــيس عـــندي إلا كما قال (أبو يوسف) فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون[1].

ووالله مـــا برح رسول الله من مجلسه حتى تغشاه من الوحي ما تغشـــاه فسجى بثوبه ووضعت له وسادة تحت رأسه ، فأما أنا فو الله ما فزعـــت ، ولا باليـــت قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي ، وأما أبـــواي فما سرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفاسهما خوف أن يتحقق اله ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول الله وأنه ليتحدر عنه مثل الجمـــان ، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول : أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك فقلت بحمد الله ، ثم قام أبو بكر فقبل رأسها [2].

---

(١) قال بعضهم : دعاها إلى الاعتراف ولم يأمرها بالستر مع أنه المطلوب ممن أتـــى ذنباً لم يطلع عليه أحد ، لعل ذلك لعظم مكانة النبي ﷺ وأما ذكر (أبو يوســـف) بـــدل (يعقوب) فهو يلهم بإنها بريئة مثل يوسف ولعل ذلك جاء إلهاما من الله سبحانه وتعالى تمهيداً لما سيلقيه الوحي من براءتها .

(٢) قـــال أبـــو بكـــر : لما نزل الوحي جعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ أخشى أن يـــنزل من السماء ما لا مرد وانظر إلى وجه عائشة فإذا هو منير فيطمعني ذلك فيها : أنظر الصديقة بنت الصديق للعقاد ص ١٠٠ ، سيرة ابن هشام ٢ /١٣٣ ومـــا بعدهـــا ، فتح الباري شرح البخاري ٣٤٨/٨ ، وأرى من حسن الاتفاق ذكر يوسف الذي رمى بتهمة مشابهة .

وخـــرج الرسول من الدار في خطى سريعة ، ودخل المسجد وقرأ الآيـــات : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلـــى قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (١).

ثـــم أمر بمسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، فحدهـــم ، وكـــان أبو بكر منذ أن اشترك مسطح في هذا البهتان قد قطع عـــنه نفقـــته التي كان ينفقها عليه لفقره ونظراً لأنه ابن خالته ، وعندما ســـمع قوـــله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾ الآية . قال أبو بكر : " إني احب أن يغفر الله لي " .

قـــال الزمخشـــري : لم يقع في القرآن من التغليظ في معصية ما وقـــع فـــي قصـــة الإفـــك فقد اشتمل على الوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجـــر العنـــيف ، واستعظام القول في ذلك واستشنائه بطرق مختلفة ، وأســـاليب متقنة كل واحد منها كاف في بابه ، حتى لقد فاق الوعيد فيها ما وقع في وعيد عبدة الأصنام وذلك كله لعلو منزلته ﷺ (٢).

وإن رســـول الله أكرم على ربه ، وأعز عليه من أن يجعل تحته امـــرأة بغـــيا ، وإن الصـــديقة حبيبة رسول الله أكرم على ربها من أن يبتلـــيها بالفاحشة وهي تحت رسوله . وهي على فراشه ، فإن الكفر وإن كـــان أشـــد جـــرماً من الفحش ، غير أن الفحش أكبر منه عاراً ، وأشد تنفـــيراً ، وأوجـــب للاحتقار في نظر الناس ، والأنبياء مصونون من أن يلحقهـــم مـــا يزري بمقامهم ، ويهد من كرامتهم ، وإذا كان الله قد صان

---

(١) من سورة النور .

(٢) تفسير الزمخشري في سورة النور .

بدنـــه ﷺ أن يقع عليه الذباب لمخالطته القاذورات ، وصان ظله أن يقع علـــى الأرض فـــي شمس أو قمر لئلا يوطأ بالأقدام ، ونبهه جبريل في صـــلاته على أن يخلع أحد نعليه لمخالطة نعله بعض النجاسة فكي تكون بأهله ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم [1].

وقــد روي أصـــحاب الســـنن عـــن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ أمر برجلين وامرأة فضربوا أحدهم ثمانين جلدة : المرأة حمنة بنت جحش ، والـــرجلان أخوها عبيد الله (أبو أحمد) بن جحش وهو غير أخيه عبد الله بـــن جحش الذي قتل يوم احد ، ومسطح ، ولم يحد الخبيث عبد الله ابن أبي لأن الحد كفارة وليس من أهلها .

غزوة الخندق (الأحزاب) :

وهـــي الأحـــزاب[2] المـــراد أن لها اسمين ، والأحزاب : جمع حـــزب أي طائفة ، فأما تسميتها الخندق ؛ فلجل الخندق الذي حفر حول المديـــنة بأمر النبي ﷺ ، وكان الذي أشار بذلك سلمان فيما ذكر أصحاب المغـــازي ، مـــنهم : أبـــو معشـــر قال : (قال سلمان للنبي ﷺ : إنا كنا بفـــارس إذا حوصـــرنا خندقنا علينا ، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول

(١) قال بعضهم : إن الله برأ أربعة بأربعة ، برأ يوسف بشاهد من أهل زليخة ، وبـــرأ موســـى من قول اليهود فيه إنه آدرحين نفر الحجر بثوبه وهو يغتسل كمـــا فـــي الـــبخاري وكما يشير إليه قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ ، وبرأ مريم بإنطاق عيســـى كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ . وبرأ عائشة بالآيات التي نزلت في سورة النور.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٩٢/٧ .

المديـــنة ، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين ، فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه ، وجاء المشركون ، فحاصروهم) (١).

وأمـــا تسميتها الأحزاب ؛ فلاجتماع طوائف من المشركين على حـــرب المسلمين ، وهم : قريش ، وغطفان ، واليهود ومن تبعهم ، وقد أنزل الله تعالى في هذه القصة صدر سورة الأحزاب . وذكر موسى بن عقـــبة فـــي " المغازي" قال (خرج حيي بن أخطب بعد قتل بني النضير إلـــى مكـــة يحرض قريشاً على حرب رسول الله ﷺ ، وخرج كنانة بن الربـــيع بن أبي الحقيق يسعى في بني غطفان ويحضهم على قتال رسول الله ﷺ علـــى أن لهـــم نصف تمر خيبر ، فأجابه عيينة بن حن بن حذيفة بـــن بـــدر الفـــزاري إلى ذلك ، وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد ، فأقبل إلـــيهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه ، وخرج أبو سفيان بن حرب بقريش ، فـــنزلوا بمـــرّ الظهـــران ، فجـــاءهم من أجابهم من بني سليم مدداً لهم فصاروا في جمع عظيم ، فهم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب) (٢).

وذكـــر ابـــن إســـحاق بأسانيده : أن عدتهم عشرة آلاف ، قال : وكان المسلمون ثلاثة آلاف(٣) .

ذكـــر موسى بن عقبة أن مدة الحصار كانت عشرين يوماً ، ولم يكن بينهم قتال إلا مراماة بالنبل والحجارة ، وأصيب منها سعد بن معاذ بسهم ، فكان سبب موته (٤).

---

(١) فتح الباري ٣٩٢/٧- ٣٩٣ .

(٢) البيهقي : الدلائل ٣٩٨/٣- ٣٩٩ ، فتح الباري ٣٩٣/٧.

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٢١٩/٢ - ٢٢٠ .

(٤) البيهقي : الدلائل ٤٠١/٣- ٤٠٤ .

وذكـــر أهـــل المغـــازي ســـبب رحيلهم ، وأن نعيم بن مسعود الأشـــجعي ألقى بينهم الفتنة فاختلفوا ، وذلك بأمر النبي ﷺ بذلك ثم أرسل الله عليهم الريح فتفرقوا وكفى الله المؤمنين القتال [1].

قـــال ابـــن إســـحاق : كانت في شوال سنة خمس ، وجزم غيره بذلـــك أيضـــاً . ومال البخاري إلى قول موسى بن عقبة وهو أنها كانت ســـنة أربـــع . وقواه بما أخرجه في أحاديث الباب من قول ابن عمر أنه عـــرض يوم أُحُد وهو أربع عشرة ، ويوم الخندق وهو ابن خمس عشرة ، فـــيكون بينهما سنة واحدة ، وأحد كانت سنة ثلاث ، فيكون الخندق سنة أربـــع ، ولا حجة فيه إذا ثبت أنها كانت سنة خمس ؛ لاحتمال أن يكون ابـــن عمـــر فـــي أُحُد كان في أول ما طعن في الرابعة عشر وكان في الأحزاب قد استكمل الخمس عشرة .

حفر الخندق :

عـــن ســـهل بـــن سعد قال : كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتافنا ، فقال رسول الله ﷺ : " اللهم .. " [2].

ولمـــا بلـــغ النبـــي ﷺ جمعهم أخذ في حفر الخندق حول المدينة ووضـــع يـــده فـــي العمل معهم مستعجلين يبادرون قدوم العدو ، وعند موسى أنهم أقاموا في عمله قريباً من عشرين ليلة [3].

(ونحن ننقل التراب على أكتافنا) وهو ما بين الكاهل إلى الظهر [4].

---

(١) ابن هشام ٢/٢٣٩ - ٢٣٠ ، عيون الأثر ٢/٨٨ - ٨٩ ، فتح الباري ٧/٣٩٣ .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٣٩٢ ، رقم ٤٠٩٨ .

(٣) البيهقي في الدلائل ٣/٤٠١ .

(٤) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث ٤/١٤٩ .

والنبـــي ﷺ يقــول : (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة) قال ابن بطــال : هــو قــول ابن رواحة يعني تمثل به النبي ﷺ ولو لم يكن من لفظه ، لم يكن بذلك النبي ﷺ شاعراً وإنما يسمى شاعراً من قصده .

(فاغفــر للمهاجريــن والأنصار) في حديث أنس بعده : (فاغفر للأنصار والمهاجرة) وكلاهما موزون ، ولعله ﷺ تعمد ذلك ، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك) المراد أنهم عملوا فيه بأنفسهم لاحتياجهم إلى ذلك لا لمجرد الرغبة في الأجر[1].

فلمــا رأى مــا بهم من النصب والجوع قال :(اللهم عن العيش عــيش الآخرة) وعند الحارث بن أبي أسامة من مرسل طاووس زيادة في هذا الرجز:

والعن عضــلا والقــارة هــم كلفونا نقل الحجارة [2]

عــن جابــر ﷺ قــال : (إنا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كيدة شديدة ..) [3]

وفــي رواية الإسماعيلي من طريق المحاربي عند عبد الواحد بن أيمــن عــن أبــيه : (قال : قلت لجابر بن عبد الله حدثني بحديث عن رســول الله ﷺ أرويه عنك ، فقال : كنا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق). (فعرضــت كــيده) ، وهـــي : القطعـــة الشديدة الصلبة من الأرض ، أعجزهم فلجئوا إلى النبي ﷺ .

---

(١) فتح الباري ٣٩٤/٧ .

(٢) الهيثمي : بغية الباحث ٨٦٧/٣ رقم ٦٧٥ ، المطالب العالية ٢٨٨/٤ .

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٩٥/٧ ، رقم ٤١٠١ .

وفي رواية الإسماعيلي : (فجئت إلى رسول الله ﷺ فقلت : هذه كدية قد عرضت في الخندق . (فقال : رشوها بالماء فرشوها) [1].

ثم قال ﷺ : (أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر) من الجوع [2]، وفائدة ربط الحجر على البطن : أنها تضمر الجوع ، فيخشى على انحناء الصلب بواسطة ذلك ، فإذا وضع فوقها الحجر وشد عليها العصابة استقام الظهر وقال الكرماني : لعله لتسكين حرارة الجوع ببرد الحجر ، ولأنها حجارة رقاق قدر البطن تشد الأمعاء ، فلا يتحلل شيء مما في البطن ، فلا يحصل ضعف زائد بسبب التحلل[3].

قال جابر : ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ولا تطعم شيئاً أو لا نقدر عليه. فأخذ المعول : أي المسحاة [4].

فسمى ثلاثاً ثم ضرب النبي ﷺ في الخندق ، ثم قال :

بسم الله وبه بدينا ... ولو عبدنا غيره شقينا

فحبذا ربا وحب دينا [5]

فعاد كثيباً أي رملاً .

والمعنى أنه صار رملاً يسيل ولا يتماسك ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾[6] أي : رملاً سائلاً [7].

---

(١) البيهقي : الدلائل ٣/٤٢٢ – ٤٢٤ ، أحمد : المسند ٣/٣٠٠ ، لسان العرب ٣/٣٧٧ ، مشارق الأنوار ١/٣٣٤ و ٢/٣٤٤ ، فتح الباري ٧/٣٩٦ .

(٢) البيهقي : الدلائل ٣/٤٢٥ .

(٣) الكرماني : شرح البخاري ١٦/٣٠.

(٤) فتح الباري ٧/٣٩٦ ، الصحاح ٥/١٧٧٨ .

(٥) بغية الباحث ٣/٨٦٦، رقم ٦٧٤، فتح الباري ٧/٣٩٧.

(٦) سورة المزمل آية (١٤).

(٧) جامع البيان ٢٩/١٣٦ .

ووقــع عند أحمد [1] ، والنسائي [2] ، في هذه القصة زيادة بإسناد حســن مــن حديث البراء ابن عازب قال : (لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفــر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صــخرة لا تأخذ فيها المعــاول ، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ ، جاء فأخذ المعول فقال : " بسم الله " فضــرب ضــربة فكسر ثلثها ، وقال : " الله أكبر أعطيت مفاتيح الشــام ، والله إنــي لأبصر قصورها الحمر الساعة " ، ثم ضرب الثانية فقطــع الثلــث الآخر ، فقال : " الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنــي لأبصر قصر المدائن أبيض " ثم ضرب الثالثة وقال : " بسم الله " فقطــع بقــية الحجر ، فقال : " الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة) . [3]

وذكر الطبراني من حديث عبد الله بن عمر ونحوه [4]، وأخرجه البيهقــي مطــولاً من طريق كثير بن عبد الرحمن بن عمرو بن عوف عــن أبــيه عــن جده ، وفي أوله [5]: (خط رسول الله ﷺ الخندق لكل عشــرة أناس عشرة أذرع – وفيه – مرت بنا صخرة بيضاء ، كسرت معاولــنا ، فأردنــا أن نعــدل عنها فقلنا : حتى نشاور رسول الله ﷺ ، فأرسلنا إليه سلمن – وفيه – فضرب ضربة صدع الصخرة وبرق منها برقة فكبر وكبر المسلمون – وفيه – رأينــاك تكــبر بتكبيرك ، فقال :

---

(١) أحمد : المسند ٣٠٣/٤ .

(٢) تحفة الأشراف ٦٥/٢ ، رقم ١٩١٨ .

(٣) فتح الباري ٣٩٧/٧ ، البيهقي : الدلائل ٤٢١/٣.

(٤) بغية الباحث ٨٦٨/٣، رقم ٦٧٧ .

(٥) البيهقي : الدلائل ٤١٨/٣ -٤٢٠.

" إن البرقة الأولى أضاءت لها قصور الشام ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم – وفي آخره – ففرح المسلمون واستبشروا) [1].

عـن البراء ﷺ قال : (كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق ، حتى أغمر بطنه [2].

قصة طعام جابر :

يقـول جابر بن عبد الله : قلت يا رسول الله ! ائذن لي إلى البيت . فـأذن لي ، وفي " المسند " من زيادات عبد الله بن أحمد من حديث ابن عـباس : (احـتفر رسول الله ﷺ الخندق ، وأصحابه قد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع ، فلما رأى ذلك النبي ﷺ قال : " هل دللتم على رجـل يطعمنا أكلة ؟ " قال رجل : نعم ، قال أما لا ، فتقدم) [3] ، قال ابن حجر : وكأنه جابر .

فقلـت لامرأتـي هي سهيلة بنت مسعود الأنصارية ، هل عندك طعام ؟ قالت : عندي شعير صاع [4].

وعـناق : هـي الأنـثى من المعز (فأخرجت إلى جراباً فيه صاع من شـعير ، ولـنا بهـيمة داجن) [5] أي سمينة ، والداجن التي تترك في البيـت ولا تفـت للمرعى ، ومن شأنها أن تسمن [6]، (فأمرت امرأتي

---

(١) فتح الباري ٣٩٧/٧ ، الدر المنثور ٥٧٤/٦ .
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٣٩/٧ ، رقم ٤١٠٤.
(٣) المعجم الكبير ٣٧٦/١١- ٣٧٧ ، رقم ١٢٠٥٢ .
(٤) البيهقي : الدلائل ٤١٦/٣ .
(٥) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٩٥/٧- ٣٩٦ ، رقم ٤١٠٢ .
(٦) مجمل اللغة ٣٤٧/١.

فطحنــت لنا الشعير وصنعت لنا منه خبراً)[1]. وذهبت إلى رسول الله ﷺ والعجين قد انكسر أي لان ورطب وتمكن منه الخبز .

(والــبرمة بيــن الأثافــي) وهي الحجارة التي توضع عليها القدر وهي ثلاثة [2].

فقلــت (قُــمْ أنت يا رسول الله ورجل او رجلان) ، وفي رواية ســعيد : (فقــم أنت ونفر معك) ، وفي رواية أحمد : (وكنت أريد أن ينصرف رسول الله ﷺ وحده) .

فقـــال رســـول الله ﷺ : " قومـــوا " فقام المهاجرون وفي رواية يونــس : (فقـــال للمســـلمين جمـــيعاً : " قوموا " ، وهي أوضح ، فإن الأحاديــث تـدل على أنه لم يخص المهاجرين بذلك ، فكان المراد فقام المهاجــرون ومـــن معهم ، وخصهم بالذكر لشرفهم ، : (فلما دخل على امـــرأته قال : ويحك جاء رسول الله ﷺ بالمهاجرين والأنصار)[3] ومن معهم .

(قالـــت : هـــل ســـألك ؟ قال : نعم ، فقال : ادخلوا) ، (قال : فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وقلت : جاء الخَلْقُ على صاع من شعير وعناق ، فَدَخَلْتُ على امرأتي أقول : افتضحت ، جاءك رســول الله ﷺ بالجــند أجمعين ، فقالت : هل كان سألك كم طعامك ؟ فقلــت : نعم ، فقالت : الله ورسوله أعلم ، ونحن قد أخبرناه . بما عندنا ، فكشفت عني غماً شديداً) .

---

(١) فتح الباري ٣٩٧/٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث ٢٣/١.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٩٥/٧، ٣٩٨ .

ووقـــع فـــي رواية أبي الزبير عن جابر في نحو هذه القصة أنها قالت لجابر : (فارجع إليه فبين له ، فأتيته فقلت : يا رسول الله إنما هي عـناق وصاع من شعير ، قال : فارجع فلا تُحَرِكَنَّ شيئاً من التنور ولا من القدر حتى آتيها ، واستعر صحافاً) [١].

قولــه : (ولا تضاغطوا) أي : لا تزدحموا [٢]. وفي رواية سعيد : (فأخرجــت له عجيناً فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبـــارك وأخذ ﷺ يُخَمِّر البرمة) أي يغطيها ثم ينزع أي يأخذ اللحم من البرمة ، (فقال : ادع خابزة فلتخبز معك) أي تساعدها .

(واقدحـــي مـــن برمتكم) أي اغرفي والمقدحة المغرفة وأقعدهم عشرة عشرة فأكلوا وبقى بقية ز وفي رواية سعيد : (فأقسم بالله لأكلوا – أي لقـــد أكلـــوا – حـــتى تركوه وانحرفوا) أي رجعوا ، وفي رواية يونـــس بـــن بكير : (فلما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعون ، ويعود التنور والقدر املأ ما كانا) .

وقـــال رســـول الله ﷺ لزوجة جابر : وكلي هذا وأهدي ، وبيان ســـبب ذلـــك قولـــه : (فإن الناس أصابتهم مجاعة)[٣] ، فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع

أحداث الغزوة :

قـــال ابـــن إسحاق في " المغازي" : نزلت قريش بمجتمع السيول فـــي عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وتهامة ، ونزل

---

(١) أخرجها البيهقي في الدلائل : ٣/٤٢٥ .

(٢) فتح الباري ٧/٣٩٨ .

(٣) صـــحيح الـــبخاري مع فتح الباري ٧/٣٩٥ ، رقم ٤١٠١ ، فتح الباري ٧/ ٣٩٨ .

عيينة في غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أحُد بباب نعمان ، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف ، والخندق بينه وبين القوم ، وجعل النساء والذراري في الآطام [1]، قال : وتوجه بن أخطب إلى بني قريظة فلم يزل بهم حتى غدروا ، وبلغ المسلمين غدرهم فاشتد بهم البلاء ، فأراد النبي ﷺ أن يعطي عيينة بن حن ومن معه ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا ، فمنعه من ذلك سعد ابن عبادة وسعد بن معاذ وقالا : كنا نحن وهم على الشرك لا يطلبون منا في شيء من ذلك ، فكيف نفعله بعد أن أكرمنا الله عز وجل بالإسلام وأعزنا بك ؟ نعطيهم أموالنا ، مالنا بهذا من حاجة ، ولا نعطيهم إلا السيف ، فاشتد بالمسلمين الحصار ، حتى تكلم معتب بن قشير وأوس بن قيظي وغيرهما من المنافقين بالنفاق ، وأنزل الله تعالى : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[2] ، قال : وكان الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة ، ومن أسفل منهم قريش وغطفان [3].

قال ابن إسحاق في روايته : ولم يقع بينهم حرب إلا مراماة بالنبل ، لكن كان عمرو بن عبد ود العامري هو ونفر معه خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق حتى صاروا بالسبخة ، فبارزة علي فقتله ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) سورة الأحزاب آية (١٢).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٢٢- ٢٢٥ ، البداية والنهاية ٤/١٠٦، فتح الباري ٧/٤٠٠.

وبـــرز نـــول بـــن عبد الله بن المغيرة المخزومي فبارزة الزبير فقتله ، ويقال : قتله على ، ورجعت بقية الخيول منهزمة [١].

وروي البيهقـــي فـــي " الدلائـــل" من طريق زيد بن أسلم : (أن رجـــلاً قـــال لحذيفة : أدركتم رسول الله ﷺ ولم ندركه ، فقال : يا ابن أخـــي ! والله لا ندري لو أدركته كيف تكون ، لقد رأيتنا ليلة الخندق في لـــيلة بـــاردة مطيرة ، فقال رسول الله ﷺ :" من يذهب فيعلم لنا علم القوم ، جعلـــه الله رفـــيق إبراهيم يوم القيامة " فو الله ما قام أحد ، فقال لنا الثانية : " جعلـــه الله رفيقي " فلم يقم أحد ، فقال أبو بكر : ابعث حذيفة ، فقال : ط اذهـــب " فقلـــت : أخشـــى أن أؤسر ، قال إنك لن تُؤسر ، فذكر أنه انطلـــق وانهم تجادلوا ، وبعث الله عليهم الريح ،فما تركت لهم بناءاً إلا هدمته ، ولا إناء إلا أكفأته) [٢].

وذُكِـــرَ أن علقمة بن علاثة صار يقول : يا ل عامر ، إن الريح قاتلتي ، وتحملت قريش وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم .

وروي الحـــاكم مـــن طريق عبد العزيز بن أخي حذيفة عن أبي حذيفـــة قـــال : (لقد رأيتنا ليلة الأحزاب وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقـــريظة أســـفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة أشد ظلمة ولا ريحـــاً منها ، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون : إن بيوتنا عورة فمـــر بي النبي ﷺ وأنا جاث على ركبتي ولم يبق معه إلا ثلاثمائة ، فقال : اذهـــب فأتني بخبر القوم ، قال : فدعا لي فأذهب الله عنى القر والفزع ، فدخلـــت عســـكرهم فإذا الريح فيه لا تجاوزه شبراً ، فلما رجعت رأيت

---

(١) الدلائل ٣/٤٥٤- ٤٥٥ ، فتح الباري ٧/٤٠٠- ٤٠١ .

فوارس في طريقي فقالوا : أخبر صاحبك أن الله عز وجل كفاه القوم) [١].
والحديث عند مسلم باختصار [٢].

وعن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال : (نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور) [٣].

"ونصرت بالصبا " وهي الريح الشرقية ، و"الدبور" وهي الريح الغربية ، وروي أحمد من حديث أبي سعيد قال : (قلنا يوم الخندق : يا رسول الله ! هل من شيء نقوله ؟ قد بلغت القلوب الحناجر ، قال : " نعم ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا " قال : فضرب الله وجوه أعدائنا بالريح ، فهزمهم الله عز وجل بالريح) [٤].

ووجه إيراد البخاري هذا الحديث : وهو أن الله تعالى نصر نبيه في غزوة الخندق بالريح ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [٥] . قال مجاهد : سلط عليهم الريح ، فكفأت قدورهم ، ونزعت خيامهم حتى أظعنتهم [٦].
وذكر ابن إسحاق في سبب رحيلهم : (أن نعيم بم مسعود الأشجعي أتى النبي ﷺ مسلماً ولم يعلم به قومه ، فقال له : " خذل عنا" ، فمضى إلى بني قريظة - وكان نديماً لهم - فقال : قد عرفتم محبتي ، قالوا : نعم ، فقال : إن قريشاً وغطفان ليست هذه بلادهم ، وإنهم إن رأوا فرصة

---

(١) البيهقي : الدلائل ٣/٤٥١ - ٤٥٣ ، البداية والنهاية ٤/١١٦
(٢) صحيح مسلم مع شرح النووي ١٢/١٤٥- ١٤٦ ، فتح الباري ٧/٤٠١ .
(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٣٩٩ ، رقم ٤١٠٥ .
(٤) أحمد : المسند ٣/٣ ، فتح الباري ٧/٤٠٢ .
(٥) سورة الأحزاب آية (٩) . ، فتح الباري ٧/٤٠٢ .
(٦) جامع البيان ٢١/١٢٨ .

انــتهزوها وإلا رجعــوا إلى بلادهم وتركوكم في البلاء مع محمد ، ولا طاقــة لكــم بـــه ، قالوا : فما ترى ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا رهــناً منهم ، فقبلوا رأيه ، فتوجه إلى قريش فقل لهم : إن اليهود ندموا علــى الغدر بمحمد ، فراسلوه في ارجوع إلأيه ، فراسلهم بأنا لا نرضى حــتى تبعــثوا إلـــى قريش فتأخذوا منهم رهناً فاقتلوهم ، ثم جاء غطفان بـــنحو ذلك ، قال : فلما أصبح أبو سفيان بعث عكرمة بن أبي جهل إلى بنـــي قريظة بأنا قد ضاق بنا المنزل لن نجد مرعى ، فاخرجوا بنا حتى نـــناجز محمداً ، فأجابوهم : إن اليوم يوم السبت ، ولا نعمل فيه شيئاً ، ولا بـــد لـــنا مـــن الرهن منكم لئلا تغدروا بنا ، فقالت قريش : هذا ما حذركــم نعــيم ، فراســلوهم ثانــياً أن لا نعطيكم رهناً ، فإن شئتم ان تخرجوا فافعلوا ، فقالت قريظة : هذا ما أخبرنا نعيم) [1].

✿✿✿

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٢٢٩ - ٢٣١، فتح الباري ٧/٤٠٢ .

غزوة الرجيع

ووقعت مأساة كهذه في الرجيع ، فقد وفد رهط من قبيلة دعل وذكوان إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : إن فينا إسلاماً ، فابعث نفراً من أصحابك يعلموننا شرائعه ، ويقرئوننا القرآن ، فبعث عشرة من كبار أصحابه(١) ، فكانت نهايتهم كنهاية سابقيهم ، ولكنهم دافعوا عن أنفسهم ، حتى قتل منهم ثمانية ، وقال الرهط للاثنين : إنا لا نريد قتلكما ، فسلما ، وبدلا من إطلاق سراحهما بيعاً كعبدين إلى قريش ، وقد اشترى خبيب بنو الحارث ، وخرجوا به ليقتلوه ، فقال لهم : إن رأيتهم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا ، فأجازوه ما أراد ، فركع الركعتين ، أتممهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم وقال : أما والله لا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل ، لاستكثرت من الصلاة ، ورفعوه إلى خشبة ، فلما أوثقوا إليها صاح : "اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً" ، ثم قتلوه .

أما زيد فقد اشتراه أبو سفيان ليقتله ، فجاءت سادات قريش لمشاهدة مقتله ، وارتفع السيف في الهواء ، وقبل أن يهوى ليطيح رأسه ، سأله أبوسفيان : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه ، وأنت في أهلك ؟ قال زيد : "والله ما أحب محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس في أهلي" ، فيا للحب الكامن في قلوب أصحابه .

---

(١) الرجيع في الأصل اسم للروث سمي بذلك لاستحالته والمراد هنا موضع من بلاد هذيل كانت الوقعة قريبة منه فتح الباري ٣٧٩/٧.

حزن النبى ﷺ حزناً شديداً على هؤلاء الرجال الذين راحوا ضحية تلك المذابح الوحشية الغادرة ، إنه ليستطيع أن يصبر على الأذى الذى يلحق به ، ولكنه يشفق من رؤية من آمن بالحق يضطهد ويعذب .

إن هؤلاء الذين قتلوا ، هم أصحابه الذين شدوا أزره ووقفوا بجانبه ، ولم يخذلوه أبداً ، وضحوا بكل شيء فى سبيل الله ، فرضى الله عنهم ، فكان لمصرعهم وقع أليم فى نفسه ، فراح يدعوا الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهمّ من قتلهم ، وقد كانوا يستحقون الانتقام منهم جزاء ما جنت أيديهم ، ولكن الله الذى أرسله رحمه للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) سورة الأنبياء لم يرض له أن يكون قاسياً حتى على مثل هؤلاء السفاكين ، إنه رحمة للعالمين ، فما له أن يفرق بين العدو والصديق ، فنزلت الآية حتى سكنت نفسه وانقشع تأثره ، وأصبح لا يحقد على من دبروا اغتيال أصحابه ، فهل فى التاريخ ما يماثل هذا ؟

❁❁❁

العمل الحازم لتشتيت الأعداء وعدم إعطاءهم الفرصة

كانت بلاد العرب على بكرة أبيها تغلى بنار الحقد والكراهية للإسلام ، فقد عقد اليهود والمنافقون ، وعبدة الأوثان العزم على إبادة المسلمين ، ولولا أن النبى ﷺ كان يقظاً ، عاملاً على إحباط كل مؤامرة ، قبل استفحال أمرها ، لاستحالت على المسلمين إقامة فى المدينة يوماً واحداً . كان أمام المسلمين أمر واحد ، هو تشتيت أعدائهم وعدم إعطائهم فرصة التحاد ، حتى لا يصبحوا قوة قادرة على القضاء عليهم . كان الموقف يتطلب عملاً حازماً سريعاً ، فما كان مصلحتهم الوقوف ينظرون إلى العدو وهو يتكلم ، وهم ساكنون لا يتحركون ، فيصبح أقوى من أن ينالون ، فينال بغيته ، ويمحق الإسلام ، فكان على المسلمين معالجة الأمر إذا ما بدرت بادرة خطر ، محافظة على أنفسهم ،

فوقعت مناوشات عديدة مثل غزوة بدر الصغرى ، فقد دعا أبو سفيان المسلمين للقائه ببدر مرة أخرى بعد عام من انتهاء غزوة بدر الأولى ، فلما استدارت السنة خرج المسلمون إلى بدر ، وأقاموا بها ثمانية أيام ، ولم يقبل جيش قريش ، فاتجر المسلمون بالسوق التى تقام هناك كل سنة فربحت تجارتهم ، ثم عادوا إلى المدينة مستبشرين بفضل الله . ومنها غزوة دومة الجندل وذات الرقاع فى السنة الخامسة للهجرة ، وغزوة بنى لحيان وغزوة ذى قرد فى السنة السادسة للهجرة . وكانت ترسل هذه السرايا بعد أن تترامى الأنباء إلى النبى ﷺ بأن العدو يستعد لقتاله ، فكانت السرايا تفاجئه قبل أن يتم استعداده ، فلا يجد خيراً من التشتت والتفرق ، وكانت تقع بعض المناوشات فى بعض الأحيان .

❁❁❁

اليهود وحقدهم على المسلمين

سبق لنا القول بأن اليهود يكونون جزءاً هاماً من سكان المدينة الأصليين ، وأنهم أثروا من التجارة والربا ثراء عظيماً ، وأن الأوس والخزرج اعتادتا الاقتراض منهم ، وأنهم كانوا يمتازون عن بقية السكان فى العلم ، وفى جميع مناحى الحياة تقريباً . فلما جاء النبى ﷺ إلى المدينة تحالف اليهود معه ، إلا أن ازدهار الإسلام ، وما وصل إليه من يسر ورخاء ، أشعل نار الغيرة فى قلوبهم ، فاتصلوا سراً بالمنافقين ، وأضروا بالمسلمين كثيراً ، ولم يتورعوا عن النبى ﷺ نفسه ، فتطاولوا عليه بالسباب والإهانة والسخرية ، فإذا جاء ذكره على لسانهم وأرادوا أن يقولوا "راعنا" مثلا ، فإنهم كانوا يغيرون الكلمة فيحذفون الألف فتصبح "راعن" ، وبدلاً من أن يقولوا للمسلمين " السلام عليكم " كانوا يقولون : السام عليكم أى الموت : وأخذوا يتفننون فى اختراع الأكاذيب التى تنال من كرامة الإسلام والمسلمين ، حتى إن بعضهم كان يذهب فى المراءاة إلى حد اعتناق الإسلام بقصد افتتان الكثيرين من المسلمين عن دينهم .

۞۞۞

بنو قينقاع وأسباب طردهم من المدينة

أخذت الغيرة التى كانت فى قلوب اليهود تضطرم وتتزايد حتى انقلبت إلى عداء مُستحكم استولى على أفئدتهم . فلم يتركوا سبيلاً للافتراء على المسلمين حتى سلكوه ، ولم تنج المحصنات المسلمات من بذاءتهم ، فكانوا يذيعون الأشعار الماجنة البذيئة للنيل من كرامتهن . وعفتهن ، بل ذهبت بهم العداوة إلى حد الاعتداء على المسلمين فى الطرقات العامة ، وقد حدث هذا الاعتداء فى بعض طرقات المدينة ، فأدى إلى شغب قتل فيه يهودى ومسلم ، واستمر القتال بين الطائفتين

فترة طويلة ، وقد أنذر بنو قينقاع – ومنهم طارت الشرارة الأولى – المسلمين بقولهم " ولا تحسبوا أننا كقريش ، فسنلقنكم درساً لن تنسوه " وهكذا نقضوا حلفهم ، واعتزموا محاربة المسلمين إلى النهاية ، واعتصموا بقلاعهم وحصونهم ، فاستعد المسلمون للحرب بدورهم ، وضربوا الحصار على معاقل يهود ، وبعد حصار دام خمسة عشر يوما عرضوا التسليم ، وقبلوا أية عقوبة يتراءى النبى ﷺ أن يفرضها عليهم لنقضهم حلفهم ، فطلب منهم النبى ﷺ الخروج من المدينة فذهبوا إلى سورية ، وكان ذلك بعد غزوة بدر بشهر واحد .

۞۞۞

غزوة بني النضير

بنوالنضــير : هــم قبيلة كبيرة من اليهود [1]، وكان الكفار بعد الهجرة مع النبي ﷺ على ثلاثة أقسام :

١- قسم وادعهم على أن لا يحاربوه ، ولا يمالئوا عليه عدوه ، وهم طوائف اليهود الثلاثة : قريظة ، والنضير ، وقينقاع

٢- وقسم حاربوه ونصبوا له العدواة ، كقريش .

٣- وقســم تاركــوه وانتظــروا ما يئول إليه أمره ، كطوائف من العــرب ، فمــنهم من كان يحب ظهوره في الباطن كخزاعة ، وبــالعكس كبنــي بكر ، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطــناً وهــم المنافقون . فكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قيــنقاع ، فحاربهم في شوال بعد وقعة بدر ، فنزلوا على حكمه ، وأراد قــتلهم ، فاستوهبهم منه عبد الله بن أبي - وكانوا حلفاءه - فوهــبهم لــه ، وأخرجهم من المدينة إلى أذرعت ، ثم نقض العهد بــنو النضير ، وكان رئيسهم حيي بن أخطب ، ثم نقضت قريظة بعد غزوة الخندق [1].

(وقــال الزهري ، عن عروة بن الزبير : كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، قبل وقعة أحد) [2].

(ثم كانت غزوة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشــهر من وقعة بدر ، وكانت منازلهم ونخلهم بناحية المدينة ، فحاصرهم رســول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من

---

(١) فتح الباري ٧/٣٣٠.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ٧/٣٢٩.

الأمـــتعة والأموال إلا الحلقة – يعني السلاح – ، فأنزل الله فيهم : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ إلـــى قوله ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾[1]، فقاتلهم النبي ﷺ) [2]، حتى صالحهم علـــى الجـــلاء ، فأجلاهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا ، وكان الله قد كتب عليهم الجلاء ، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسباء .

وذكر ابن إسحاق أن حساناً قال في غزوة بني قريظة [3] ،

(١)	تقاعد معشر نصروا قريشـــاً	وليس لهم ببلدتهم نصير
(٢)	هم أوتوا الكتاب فضيعوه	فهم عمي عن التوراة بور
(٣)	كفرتم بالقرآن لقد ضيعتم	بتصديق الذي قال النذير [4]
(٤)	ألا يا سعد سعد بني معاذ	فما فعلت قريظة والنضير
(٥)	وقد قال الكريم أبو حباب	أقيموا قينـــقاع والنضير

۞۞۞

مؤامرات بنى النضير وطردهم من المدينة

وبنوا النضير قبيلة أخرى من يهود ، كانت قد حالفت المسلمين ولكنها كانت متصلة بقريش من البداية ، حتى إن قريشاً كتبت لها قبل غزوة بدر تطلب منها قتل النبى ﷺ ، وحدث مرة أن دعا بنو النضير النبى ﷺ إلى وليمة ، وحاولوا الاعتداء على حياته ، ولكنهم أخفقوا ، فلما

---

(١) سورة الحشر الآيات (١، ٢).
(٢) عبد الرازق : المصنف ٣٥٧/٥- ٣٥٨ ، ٩٧٣٢.
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٧٢/٢ ، فتح الباري ٣٣٣/٧.
(٤) فتح الباري ٣٣٣/٧ – ٣٣٤ .

بدت خيانتهم سافرة ، لم يكن فى استطاعة النبى ﷺ أن يتركهم وهم العنصر المؤذى الشرير ليقيموا فى قلب المدينة ووسطها ، فعرض عليهم أن يختاروا واحداً من اثنين ، إما الخروج من المدينة ، وإما الرجوع إلى العقل والاتزان وتجديد الحلف مع المسلمين ، وقد قبل بنو قريظة - وكان ضررهم على الإسلام ضئيلاً - تجديد الحلف مع المسلمين عن طيب خاطر ، ولكن بنى النضير - الذين كانوا يبيتون الشر - رفضوا ذلك الحلف الجديد فأصبحوا أعداء الإسلام السافرين ، وساعدهم على التشبث بإظهار العداء ، وعبدالله بن أبى لهم بالمساعدة ، وينبغى ألا يفوتنا أن الإسلام كان يجتاز فى هذه الآونة مرحلة جد عصيبة ، فقد حدث هذا فى قارة غزوة أحد ، أى فى الوقت الذى كان فيه جميع أعداء الإسلام ممتشقين الحسام ، يحاولون تسديد الضربة القاضية إليه . إن الهجوم من الخارج مخيف ، ولكن الانجار الداخلى الذى قد يحدث فى أية لحظة أدعى إلى الرعب القاتل ، ولما كان الاحتراس نوعاً من أنواع الدفاع ، إن لم يكن أهمها ، وكان الشغب المفاجىء الذى قد يحدث داخل أسوار المدينة نفسها معناه ضربة فى الصميم ، ولما كان بنوا النضير يظهرون الود والصداقة لأعداء الإسلام علانية وكان رفضهم تجديد الحلف مع المسلمين بمثابة إعلان للحرب ، علاوة على محاولتهم اغتيال النبى الكريم ﷺ ، لم يكن فى الإمكان معاملتهم إلا معاملة الأعداء المعاندين ، فضرب النبى ﷺ الحصار على معاقلهم ، ولم يرفعه عنها إلا بعد أن وعدوا بمغادرة المدينة . وارتحل نفر منهم إلى خيبر ، وأقاموا هنالك ، وكان ذلك فى السنة الرابعة للهجرة .

❁❁❁

نقض بنو قريظة للعهد وتحالفهم ضد المسلمين

لعب بنو النضير دوراً هاماً فى غزوة الأحزاب ، فإنهم كانوا إلى جانب إثارتهم قبائل قريش ، يتشبعون فى الصحراء ، ويدخلون مساكن العرب ويترددون عليهم بقصد إثارتهم على الإسلام والمسلمين وقد تأثر بذلك بنو قريظة ، وكان موقفهم من الإسلام حتى الآن ، موقف الحليف . وقد رفضوا فى بادئ الأمر الاشتراك فى قتال المسلمين ، غير أن النبى ﷺ بنى النضير أعطوهم المواثيق بأن الإسلام مقضى عليه لا محالة ، وأنهم لا قبل لهم بمدافعة قوات القبائل العربية كلها ، وهى قوات فى تزايد مطرد ، ومن كل فج للقضاء على الإسلام والمسلمين ، وقيل لهم : "لقد جاء الوقت وأزفت الآزفة ، وما عليكم إلا تجديد اختباركم ، فإما الانضمام إلى جانب المسلمين . وإما وضع يدكم فى يد الأحزاب المناوئة له" . ولم يسع بنى قريظة إلا الخضوع لرأى القبائل الأخرى ، ونقض الحلف مع الإسلام والانضمام إلى الأحزاب المناوئة لهم ، والوعد بالمؤازرة إذا ما نشب القتال فى غزوة الأحزاب

وبالرغم من أن أمر الحلف بين الأحزاب كان سراً يراد كتمانه ، فإن أثره وضح على الأثر واشتراك بنو قريظة فى الغزوة فعلاً ، وفيهم نزلت الآية ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . . ﴾(٢٦) سورة الأحزاب إلخ وقد أثبت التاريخ صحة اشتراكهم فيها ، وأثبت أنهم اعتزموا مهاجمة نساء المسلمين أيضاً . كانت هذه الفترة خطر وحرج للمسلمين ، فقد كان أربعة وعشرون ألفاً من المحقين المغيظين يتربصون بهم فى خارج الخندق ، ويتحرقون شوقاً للقضاء عليهم وعلى دينهم ، وكان المنافقون منهمكين فى إلحاق الأذى بهم فى الداخل ، ثم كانت خيانة قريظة ثالثة الأثافي ، وقد أضرب المسلمين كثيراً ، وزادت فى محنتهم وكربهم ، فكان أمراً طبيعياً ومنطقياً ، بعد أن انتهت غزوة الأحزاب ، أن يلقوا

جزاءهم العادل ، ليكونوا عبرة لمن يعتبر ، وحتى لا تتكرر أمثال هذه الخيانة فى المستقبل ، فضرب الحصار على حصونهم ومعاقلهم ، وبعد شيء من المقاومة استسلموا ، وكان ذلك فى السنة الخامسة للهجرة .

حكم سعد فيهم بناء على طلبهم

وقد قبلوا أن يكون سعد بن معاذ حليفهم السابق حكماً بينهم وبين المسلمين لتقدير العقوبة التى يستحقونها ، ورأى سعد ــ الحكم الذى اختاره بأنفسهم ــ أن خيانتهم فى ساعة الخطر والحرج أمر فظيع ، واعتراف بأن جريمتهم الجسيمة تستحق عقاباً صارماً رادعاً لهم ولغيرهم حتى لا تصبح المعاهدات والمواثيق فى المستقبل شيء غير محترم ، أو كقصاصات الورق التى لا قيمة لها ، وقر قراره على ألا يكون القصاص الذى يقترحه بأقل من القصاص الذى يلحق بالعدو المهزوم ، وعلى الصورة التى جاءت فى كتابهم المقدس : التوراة .

وهاك ما جاء فى التوراة فى هذا المعنى :

"وعندما ما ينتهى بها الله ربك إليك ، فسوف على كل رجل بحد السيف ، أما النساء والأطفال والغنام وكل ما فى المدينة حتى الغنائم ، فهو لك أنت وحدك ، وسوف تأكل غنائم أعدائك التى أعطاها لك الله" .

فلو أنهم تركوا الأمر للنبى لما نالهم أكثر مما نال القبائل الشقيقة لهم ، من أمثال بنى قينقاع وبنى النضير ، أو لأبعدوا على أسوء فرض ، ولكن هكذا حكم سعد ــ وهو الحكم الذى اختاروه لأنفسهم ــ طبقاً لما جاء فى شريعة موسى ، حكم بالموت على رجال قبيلة بنى قريظة ، وعددهم ثلاثمائة ، أما النساء والأطفال فأخذوا أسرى ، وصودرت أملاكهم . وقد يبدوا أنه حكم صارم ، ولكنه عين ما اعتادت يهود ــ بحسب ما جاء فى كتابهم المقدس ــ أن تفرضه على عدوها المهزوم ؛ فضلاً عن جريمة الخيانة الدنيئة التى ارتكبتها بنى قريظة لا يمكن فرض قصاص عادل لها ــ حتى فى زماننا هذا ــ غير ما كان .

كان القاضى من اختيارهم ، وكان الحكم مطابقاً تمام المطابقة لشريعتهم . إن خيانتهم كانت من النوع الخطر ، فهل هنالك ما يمكن أن يعاب على النبى ﷺ ؟ إن الاحتجاج بأن هذا حكم صارم هو احتجاج على الشريعة الموسوية ، وربما كان فى ذلك إنصاف مستتر للإسلام ، فإن صح بأن الموسوية شريعة صارمة ، فكان العالم فى حاجة إلى شريعة جديدة ـــ الشريعة الإسلامية ـــ أكثر سماحة ورأفة . وبمقارنة سريعة بين الشريعتين ترجح كفة شريعة الإسلام ، إذا أنها شريعة الرحمة والسلام والسماحة والرأفة .



غزوة بني قريظة

مرجع النبى ﷺ من الأحزاب [1] المراد أى من الموضع الذى كان يقاتل فيه الأحزاب إلى منزله بالمدينة .

ومخرجه إلى بني قريظة ، ومحاصرته إياهم) السبب هو ما وقع من بني قريظة من نقض عهده ومما لأتهم لقريش وغطفان عليه ، وكان توجه النبى ﷺ إليهم لسبع بقين من ذى القعدة ، وخرج إليهم فى ثلاثة آلف ، وذكر ابن سعد أنه كان مع المسلمين ستة وثلاثون فرساً [2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت :(لمّا رجع النبى ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل عليه السلام فقال : قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه ...) [3] .

وكان بين بني قريظة وبين النبي ﷺ عهد ، فلما جاءت الأحزاب نقضوه وظاهروهم ، فلما هزم الله عز وجل الأحزاب تحّصنوا ، فجاء جبريل ومن معه من الملائكة فقال : يا رسول الله انهض إلى بني قريظة ، فقال : " إن في أصحابي جهداً " قال : انهض إليهم فلأضعضعنهم ، قال : فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار [4] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (قال النبي ﷺ يوم الأحزاب : " لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة " ...) [5].

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري (٤٠٧/٧) .

(٢) ابن سعد . الطبقات (٧٤/٢) ، فتح البارى (٤٠٨/٧) .

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري (٤٠٧/٧ ، رقم ٤١١٧-٤١١٨) .

(٤) ابن سعد : الطبقات ٧٧/٢.

(٥) صحيح البخاري مع فتح الباري ٤٠٧/٧- ٤٠٨ ، رقم ٤١١٩ .

وقال ابن إسحاق : لما انصرف النبي ﷺ من الخندق راجعاً إلى المدينة أتاه جبريل الظهر ، فقال : إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة ، فأمر بلال فأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين إلا في بني قريظة [١]. واخرج الطبراني [٢]، والبيهقي في " الدلائل "[٣] بإسناد صحيح عن عبيد الله بن كعب : (أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب وجمع عليه الأمة واغتسل واستجمر ، تبدى له جبريل ، فقال : غديرك من محارب ، فوثب فزعاً فعزم على الناس أن لا يصلوا العصر حتى يأتوا بني قريظة ، قال : فلبس الناس السلاح ، فلم يأتوا قريظة حتى غربت الشمس ، قال : فاختصموا عند غروب الشمس ، فصليت طائفة العصر وتركتها طائفة وقالت : إنا في عزمة رسول الله ﷺ فليس علينا إثم ، فلم يعنف واحداً من الفريقين) [٤].

ووقع عند ابن إسحاق أن الذين أخروا الصلاة صلوها في وقت العشاء [٥]، وعند موسى بن عقبة أنهم صلوها بعدما غابت الشمس[٦].

قال ابن القيم في " الهدى" : كل من الفريقين مأجور بقصده ، إلا من صلى حاز الفضيلتين : امتثال الأمر في الإسراع ، وامتثال الأمر في المحافظة على الوقت ، ولا سيما ما في هذه الصلاة بعينها من الحث على

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٢٣٣ – ٢٣٤ .

(٢) الطبراني : المعجم الكبير ١٩/٨٠ ، رقم ٩١٦٠ .

(٣) البيهقي : الدلائل ٤/٧، ١٨ ، فتح الباري ٧/٤٠٨ .

(٤) فتح الباري ٧/٤٠٨ – ٤٠٩ ، أبو نعيم الدلائل ٢/٥٠٥ ، رقم ٤٣٦ ، المستدرك ٣/٣٤ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٣٥

(٦) البيهقي : الدلائل ٤/١٢.

المحافظة عليها ، وأن من فاتته حبط عمله ، وإنما لم يعنف الذين أخروها لقيام عذرهم في التمسك بظاهر الأمر ، ولأنهم اجتهدوا فأخروا لامتثالهم الأمر ، ولكنهم لم يصلوا إلى أن يكون اجتهادهم أصوب من اجتهاد الطائفة الأخرى (١).

وأما من احتج لمن أخر الصلاة حينئذ كانت تؤخر كما في الخندق ، وكان ذلك قبل صلاة الخوف ، فليس بواضح ، لاحتمال أن يكون التأخير في الخندق كان عن نسيان ، وذلك بين في قوله ﷺ لعمر لما قال له : ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس أن تغرب ، فقال : " والله ما صليتها " لأنه لو كان ذاكراً لها لبادر إليها ، كما صنع عمر (٢).

قصة أم أيمن :

عن أنس ﷺ قال : " كان الرجل يجعل للنبي ﷺ النخلات حتى افتتح قريظة والنضير ...)(٣) حاصلة أن الأنصار كانوا واسوا المهاجرين بنخيلهم لينتفعوا بثمرها ، فلما فتح الله النضير ثم قريظة قسم في المهاجرين في غنائمهم فأكثر ، وأمرهم بردّ ما كَانَ للأنصار لاستغنائهم عنه ، ولأنهم لم يكونوا ملكوهم رقاب ذلك ، وامتنعت أم أيمن من رد ذلك ظناً أنها ملكت الرقبة ، فلاطفها النبي ﷺ لِمَا كان لها عليه من حق الحضانة ، حتى عوضها عن الذي كان بيدها بما أرضاها .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد في هدى خير العباد ٣/١٣١.

(٢) فتح الباري ٧/٤١٠.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٤١٠- ٤١١ ، ٤١٢٠ و ٦/٢٢٧ ، ٣١٢٨ و ٧/٣٢٩، ٤٠٣٠ و ٥/٢٤٢- ٢٤٣ ، ٢٦٣٠.

وكان النبي ﷺ قد أعطاه أم أيمن ، فجاءت أم أيمن في هذا السياق حذف يوضحه رواية مسلم من هذا الوجه بلفظ : (أعطاه أم أيمن فأتيت النبي ﷺ فأعطانيه ، فجاءت أم أيمن) [١]، (والنبي ﷺ يقول : " يا أم أيمن اتركيه ولك كذا ") كناية عن القدر الذي ذكره لها النبي ﷺ [٢].

قال النووي : ظنت أم أيمن أن تلك المنحة مؤبدة لم ينكر النبي ﷺ عليها هذا الظن ، تطبيقاً لقلبها ، لكونها حاضنته ، وزاد من عنده حتى طاب قلبها [٣].

وفي الحديث مشروعية هبة المنفعة دون الرقبة ، وفرط جود النبي ﷺ ، وكثرة حلمه وبره ومنزلة أم أيمن عند النبي ﷺ ورضي الله عنهما ، وهي والدة أسامة بن زيد وابنها أيمن له صحبة ، واستشهد بحنين ، وهو أسن من أسامة ، وعاشت أم أيمن بعد النبي ﷺ قليلاً [٤].

حكم سعد رضي الله عنه في بني قريظة :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : (أنزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد ...) [٥].

وفي رواية النسائي : (حكم أن يقتل منهم كل من جرت عليه الموسى)[٦]، (فلما دنا من المسجد) قيل المراد المسجد الذي كان

---

(١) فتح الباري ٤١١/٧ ، شرح صحيح مسلم للنووي ٩٩/١٢-١٠١ .

(٢) فتح الباري ٤١١/٧.

(٣) النووي : شرح صحيح سسلم ١٠١/١٢.

(٤) فتح الباري ٤١١/٧ ، شرح صحيح مسلم للنووي ١٠٠/١٢ .

(٥) صحيح البخاري مع فتح الباري ٤١١/٧- ٤١٢ ، ٤١٢١، ٤١٢٢ و ١٢٣/٧، ٣٨٠٤ و١٦٥/٦ ، ٣٠٤٣ و ٤٩/١١ ، ٦٢٦٢.

(٦) النسائي : فضائل الصحابة ص ٣٦ ، رقم ١٩٩ ، فتح الباري ٤١٢/٧ .

النبـــي ﷺ أعده للصلاة فيه في ديار بني قريظة أيام حصارهم ، وليس المراد به المسجد النبوي بالمدينة ، وكلام ابن إسحاق يدل على أنه كان مقـيماً فـي مسجد المدينة حتى بعث إليه رسول الله ﷺ ليحكم في بني قريظة ، فإنه قال : (كان رسول اله ﷺ جعل سعداً في خيمة رفيدة عند مسـجده ، وكانـت امـرأة تـداوي الجرحى فقال : اجعلوه في خيمتها لأعوده من قريب ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى بني قريظة وحاصرهم وسـألوا الأنصـار أن ينزلوا على حكم سعد أرسل إليه ، فحملوه على حمـار ، ووطـئوا له وكان جسيماً) [1]، قال أبو سعيد : فلما طلع قال النبي ﷺ : " قوموا إلى سيدكم ، فأنزلوه" فقال عمر : السيد هو الله) [2].

وفـي حديث جابر عند ابن عائذ : (فقال : " احكم فيهم يا سعد " ، قـال : الله ورسوله أحق بالحكم ، قال : " قد أمرك الله تعالى أن تحكم فـيهم ") ، وفي رواية ابن إسحاق من مرسل علقمة بن وقاص : (" لقد حكمـت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ") ، وأرقعة جمع رقيع ، وهو من أسماء السماء ، قال : سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم .

وعـن عائشة رضي الله عنها قالت : (أطيب سعد يوم الخندق ، رماه رجل من قريش ..) [3].

والـذي رمـاه هو : (حبان بن العرقة) العرقة أمه ، وهي بنت سعيد بن سعد بن سهم .

(من بني معيص) : وهو حبان بن قيس ، ويقال : ابن أبي قيس بن علقمة بن عبد مناف .

---

(١) ابن هشام ٢٣٩/٢ ، البداية والنهاية ١٢٣/٤.

(٢) أحمد : المسند ١٤٢/٦ ، فتح الباري ٤١٢/٧ و٤٩/١١- ٥٤ ، رقم ٦٢٦٢.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٤١١/٧ - ٤١٢ ، رقم ٤١٢٢ .

(رمـــاه في الأكحل) : وهو عرق في وسط الذراع ، قال الخليل : هــو عــرق الحياة ، ويقال : إن في كل عضو منه شعبة ، فهو في اليد الأكحل ، وفي الظّهر الأبهر ، وفي الفخذ النسا ، إذ قطع لم يرقأ الدم [(١)].

الأحداث التي وقعت بعد غزوة الخندق

سرية كرز بن جابر إلى العرنيين :

عــن أنـــس قال : (قدم أناس من عكل – أو عرينة – فاجتووا المدينة..) [(٢)].

وعــن أنـــس : (أن رهطــاً من عكل ثمانية) لاحتمال أن يكون الــثامن مــن غيــر القبيلتين وكان من اتباعهم فلم ينسب [(٣)]. وقد غفل من نسب عدتهم ثمانية لرواية أبي يعلي ، وهي عند البخاري وكذا عند مسلم .

وذكــر ابن إسحاق في " المغازي" أن قدوم عُكْل وعرينة كان بعد غــزوة ذي قرد وكانت في جمادى الآخرة سنة ست ، ووقع عند مسلم عن أنـــس : (وقع بالمدينة الموم) ، قال : (وهو البرسام)[(٤)] سرياني معرب ، أطلق على اختلال العقل وعلى ورم الرأس وعلى ورم الصد [(٥)]، والمراد هنا الأخير ، وعن أنس في هذه القصة (فعظمت بطونهم)[(٦)] .

(فأمـــرهم أن يلحقوا براعيه)[(٧)]، وأخرج مسلم في صحيحه : (أنهم بدؤا بطلب الخروج إلى اللقاح ، فقالوا : يا رسول الله ! قد وقع هذا الوجع ،

---

(١) فتح الباري ٤١٣/٧ ، لسان العرب ٥٨٦/١١ .
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٣٥/١ ،رقم ٢٣٣ .
(٣) فتح الباري ٢٣٧/١ .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٦/١١ .
(٥) النووي : شرح صحيح مسلم ١٥٦/١١– ١٥٧ .
(٦) أحمد : المسند ٢٩٠/٣.
(٧) صحيح البخاري مع فتح الباري ١٤٢/١٠ ، رقم ٥٦٨٦ .

فلـــو أذنـــت فخرجنا إلى الإبل ، وقالوا : (يا رسول الله ! أبغنا رسلاً)[1] أي طلـــب لـــنا لبـــناً (قال : " ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بالذود ") ، وفي رواية أبي رجاء : (" هذه نعم لنا تخرج فاخرجوا فيها ")[2].

واللقاح : النوق ذوات الألبان ، واحدها لِقْحة ، وقال أبو عمرو : يقال لها ذلك إلى ثلاثة أشهر ثم هي لبون [3].

وظاهر ما مضى أن اللقاح كانت للنبي ﷺ لقوله : (إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله ﷺ) [4].

وفـــي رواية أنه أمرهم أن يأتوا إبل الصدقة [5]. والجمع بينهما أن إبـــل الصـــدقة كانت ترعى خارج المدينة ، وصادف بعث النبي ﷺ بلقاحـــة إلـــى المرعى طلب هؤلاء النفر الخروج إلى الصحراء لشرب ألـــبان الإبل ، فأمرهم أن يخرجوا مع راعيه ، فخرجوا معه إلى الإبل ، ففعلـــوا مـــا فعلوا ، وظهر بذلك مصادق قوله ﷺ : (" إن المدينة تنفي خبـــثها ")[6] . وذكـــر ابـــن سعد أن عدد لقاحه ﷺ كانت خمس عشرة وأنهـــم نحـــروا منها واحدة يقال لها : الحناء [7]، وفي رواية شعبة عن قـــتادة : (فـــرخص لهـــم أن يأتوا الصدقة فيشربوا) فأما شربهم ألبان الصـــدقة فلأنهم من أبناء السبيل ، وأما شربهم لبن لقاح النبي ﷺ فبإذنه المذكور ، وأما شربهم البول فاحتج به من قال بطهارته ، أما من الإبل

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ١١١/١٢ ، رقم ٦٨٠٤ .
(٢) المصدر نفسه ٢٧٤/٨ ، رقم ٤٦١٠.
(٣) تهذيب اللغة ٥٤/٤ ، لسان العرب ٥٧٩/٢ .
(٤) فتح الباري ٣٣٨/١ .
(٥) فتح الباري ٣٦٦/٣ ، رقم ١٥٠١ .
(٦) المصدر نفسه ٩٦/٤- ٩٧، رقم ١٨٨- ١٨٨٤ .
(٧) ابن سعد : الطبقات ٩٣/٢ ، عيون الأثر ١٢٠/٢.

فـبهذا الحـديث ، وأما من مأكول الحم فبالقياس عليه ، وهذا قول مالك وأحمـد وطائفة من السلف ، ووافقهم من الشافعية : ابن خزيمة ، وابن المـنذر ، وابـن حـبان ، والأصطخري ، والروياني ، وذهب جمهور الشـافعية والجمهور إلى القول بنجاسة الأبوال والوراث كلها من مأكول الحم وغيره[1].

فشربوا من أبوالها وألبانها فلما صحوا ، وسمنوا ، ورَجعت إليهم ألوانهم [2].

قوله : (واستاقوا النعم) من السوق وهو السير العنيف .

وقـد أخرج مسلم (فقتلوا أحد الراعيين وجاء الآخر قد جزع ، فقال : قد قتلوا صاحبي وذهبوا بالإبل [3]، واسم راعي النبي ﷺ المقتول : يسار ، ورواه الطبراني من حديث سلمة بن الأكوع بإسناد صالح قال : (كـان للنبي ﷺ غلام يقال لـه يسار أصابه في غزوة بن ثعلبة ، فرآه يحسـن الصـلاة فأعتقه وبعثه في لقاح له بالحرة ، فكان بها ..) فذكر قصـة العرنيين وانهم قتلوه [4]، وفي روايات البخاري لم تختلف في أن المقتول راعي النبي ﷺ [5]، فبعث في آثارهم خيلاً من المسلمين أميرهم كُرز بن جابر الفهري[6] .

---

(١) فتح الباري ٣٣٨/١ – ٣٣٩ .

(٢) احمد : المسند ٢٩٠/٣ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٦/١١ ، الفتح ٣٣٩/١ .

(٤) المعجم الكبير ٧/٧ ، رقم ٦٢٢٣.

(٥) صـحيح البخاري مع فتح الباري رقم ٢٣٣- ١٥٠١- ٣٠١٨- ٤١٩٢- ٤٦١٠- ٥٦٨٥- ٥٦٨٦- ٥٧٢٧- ٦٨٠٢- ٦٨٠٣- ٦٨٠٥- ٦٨٩٩) ، فتح الباري ٣٣٩/١ .

(٦) فتح الباري ٣٣٩/١ ، الواقدي ٥٦٩/٢ ، ابن سعد : الطبقات ٩٣/٢ .

وعـند مسـلم في صحيحه عن أنس : أنهم شباب من الأنصار قـريب مـن عشرين رجلاً ، وبعث معهم قائفاً يقتص آثارهم ، فأدركوا في ذلك اليوم فأخذوا ، فلما ارتفع النهار جئ بهم إلى النبي ﷺ أسارى ، فأمـر بقطع أيدهم وأرجلهم من خلاف [1] ، ولم يحسمهم[2] أي : لم يكو ما قطع منهم بالنار لينقطع الدم ، بل تركه ينزف .

(وسمّرت أعينهم) ووقع لمسلم من رواية عبد العزيز:(وسَمَل)[3]

قال الخطابي : السمل فقء العين بأي شيء كان ، قال أبو ذؤيب الهذلي :

والعين بعدهم كأنّ حداقها سملت بشوك فهي عور تدمع

وألقوا في الحرة هي أرض ذات حجارة سود معروفة بالمدينة ، وإنما ألقوا فيها لأنها قرب المكان الذي فعلوا فيها ما فعلوا [4].

قال الخطابي : إنما فعل النبي ﷺ بهم ذلك ؛ لأنه أراد بهم الموت بذلك [5]، وقيل : أن الحكمة في تعطيشهم لكونهم كفروا نعمة سقي ألبان الإبل التي حصل لهم بها شفاء من الجوع والهزل ، ولأن النبي ﷺ دعا بـالعطش على من عطش آل بيته ، كما في رواية النسائي [6]، ويحتمل أن يكونـوا في تلك الليلة منعوا إرسال ما جرت به العادة من اللبن الذي كان يراح به إلى النبي ﷺ منّ لقاحه في كلّ ليلة .

---

(١) الترمذي : السنن ٤٩/١ ، رقم ٧٢ ، فتح الباري ٣٤٠/١ .
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢٣٠/١٢، رقم ٦٨٨٩ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٥/١١ .
(٤) فتح الباري ٣٤٠/١.
(٥) الخطابي : أعلام الحديث ٢٨٦/١ .
(٦) سنن النسائي بشرح السيوطي ٩٩/٧ ، رقم ٤٠٣٦ .

وفـي هـذا الحديث من الفوائد : قدوم الوفود على الإمام ، ونظره في مصالحهم . وفيه مشروعية الطب والتداوي بألبان الإبل وأبوالها . وفيه أم كـل جسـد يطب بما اعتاده وفيه قتل الجماعة بالواحد سواءً قتلوه غـيلة أو حـرابة إن قلـنا أن قـتلهم كان قصاصاً . وفيه المماثلة في القصاص وليس ذلك من المثلةِ المنهي عنها ، وثبوت حكم المحاربة في الصحراء ، وأما في القرى ففيه خلاف .

وفـيه جواز استعمال أبناء السبيل إبل الصدقة في الشرب وغيره قياسـاً عليه بإذن الإمام . وفيه العمل بقول القائف ، وللعرب في ذلك المعرفة التامة [1].

❀❀❀

(١) فتح الباري ١/٣٤١ .

غزوة ذي قرد

وهو ماء على نحو بريد ما يلي بلاد غطفان ، وقيل : على مسافة يوم[١].

(وهي الغزوة التي أغاروا فيها على لقاح النبي ﷺ قبل خيبر بثلاث) جزم البخاري به وأخرج مسلم الحديث عن سلمة بن الأكوع : قال فرجعنا - أي من الغزوة - إلى المدينة ، فوالله ما لبثنا بالمدينة إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر) [٢].

قال ابن سعد : (كانت غزوة ذي قرد في ربيع الأول سنة ست قبل الحديبية ، وقيل : في جمادى الأولى) [٣].

(وكانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذي قرد) اللقاح : ذوات الدر من الإبل ، واللقوح الحلوب ، وذكر ابن سعد أنها كانت عشرين لقحة وكان فيهم ابن أبي ذر وامرأته ، فأغار المشركون عليهم فقتلوا الرجل وأسروا امرأته [٤].

(فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف) يحتمل أن يكون هو رباح غلام رسول الله ﷺ ، كما في رواية مسلم [٥]، وروي مسلم : (قدمنا الحديبية ثم قدمنا المدينة فبعث رسول الله ﷺ بظهره مع رباح غلامه وأنا معه ، وخرجت بفرس لطلحة أندبه ، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفرازي) ، قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ فاستاقه أجمع وقتل راعيه ، قال : فقلت : يا رباح خذ الفرس وأبلغه طلحة وأبلغ رسول الله

---

(١) فتح الباري ٧/٤٦٠ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٨٣ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ٢/٨٠- ٨٤ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ٢/٨٠ ، وانظر : فتح الباري ٧/٤٦١ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٧٣ .

ﷺ الخبــر) [١] ، فصــرخت ثــلاث صرخات (فأسمعت ما بين لابتي المديــنة) فيه إشعار بأنه كن واسع الصوت جداً ، ويحتمل أن يكون ذلك مــن خوارق العادات ، واخرج مسلم : (فعلوت أكمة فاستقبلت المدينة فناديت ثلاثاً)[٢] ، وفي رواية الطبراني : (فصعدت في سلع ثم صحت : يــا صباحاه ، فانتهى صياحي إلى النبي ﷺ ، فنودي في الناس : الفزع الفــزع) ، (ثم اندفعت على وجهي) معناه أنه لم يلتفت يميناً ولا شمالاً ، بل أسرع الجري ، وكان شديد العدو ، كما في آخر الحديث .

حتــى أدركتهم فأقبلت أرميهم بالسهام[٣] وأقول : أنا ابن الكوع ، والــيوم يوم الرُضَّع جمع راضع ، وهو اللئيم ، فمعناه : اليوم يوم اللئام ، أي اليوم هلاك اللئام.

وعــند مسلم : (فأقبلت أرميهم بالنبل وأرتجز ..) وفيه : (فألق رجــلاً منهم فأصكه بسهم في رجله ، خلص السهم إلى كعبه ، فما زلت أرمــيهم وأعقرهم ، فإذا رجع إلى فارس منهم أتيت شجرة فجلست في أصــلها ثــم رميــته فعقرت به ، فإذا تضايق الخيل في مضايقة علوت الجــبل فرميتهم بالحجارة)[٤] ، وكان سلمة مثل الأسد ، فإذا حملت عليه الخيل فرّ ، ثم عارضهم فنضحها عنه بالنبل) [٥].

فمــا زلــت كذلك حتى ما خلق الله من ظهر رسول الله ﷺ من بعيــر إلا خلفــته وراء ظهري ، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من

---

(١) أحمد : المسند ٤/٤٨- ٤٩ ، ابن سعد : الطبقات ٢/٨١- ٨٢ ، فتح الباري ٧/٤٦١ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٧٨ .

(٣) فتح الباري ٧/٤٦١ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٧٨- ١٧٩.

(٥) فتح الباري ٧/٤٦٢ ، ابن هشام ٢/٢٨١-٢٨٢ .

ثلاثــين بـــردة وثلاثـــين رمحاً يتخففون بها ، فأتوا مضيقاً فأتاهم رجل فجلســـوا يتغدون ، فجلست على رأس قرن ، فقال لهم : من هذا ؟ فقالوا : لقيــنا من هذا البرج ، قال فليقم إليه منكم أربعة ، فتوجهوا إليه فتهددهم فـــرجعوا ، قـــال فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ أولهـــم الأخرم الأسدي ، فقلت له : أحذرهم ، فالتقى هو وعبد الرحمن بن عيينة ، فقتله عبد الرحمن ، وتحل على فرسه ، فلحقه أبو قتادة فقتل عـــبد الرحمن وتحول على الفرس ، واتبعتهم على رجلي حتى ما أرى أحـــداً ، فعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له : ذي قرد فشـــربوا مـــنه وهم عطاش ، قال : فجلاهم عنه حتى طردهم ، وتركوا فرســـين على ثنية ، فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ وأتاني عمي عامـــر بـــن الأكوع بسطيحة فيها ماء ، وسطيحة فيها لبن ، فتوضأت وشـــربت .. ثـــم أتيت النبي ﷺ وهو على الماء الذي أجليتهم عنه ، فإذا هو قد أخذ كل شيء استنقذته منهم ، ونحر له بلال ناقته .

فقلـــت يا رسول الله ! خلني أنتخب من القوم مائه رجل فأتبعهم فـــلا يبقـــى منهم مخبر ، قال : فضحك) [1] ، قال : " يا ابن الأكوع ، ملكـــت فأسجح " ، والمعنى قدرت فاعف ، إن القوم ليقرون في قومهم [2]، وفـــي رواية مسلم : " إنهم ليقرون في أرض غطفان " من القرى وهي الضيافة [3].

---

(١) فتح الباري ٤٦٢/٧ .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ١٦٤/٦ ، رقم ٣٤٠١ .

(٣) فتح الباري ٤٦٣/٧ .

ثـم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء[1] الحديث ، وفيه ذكـر قصـة الأنصاري الذي سابقة فسبقه سلمة ، وقال : (فسبقت إلى المدينة ، فو الله ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر - وفيه - فقال رسول الله ﷺ : " خيْر فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا اليوم سلمة " ، قال سلمة : ثم أعطاني سهم الراجل والفارس جميعاً)

وفـي الحـديث : جواز العدو الشديد في الغزو ، والإنذار بالصياح العالي ، وتعريف الإنسان نفسه إذا كان شجاعاً ليرعب خصمه ن واستحباب الثناء على الشجاع ومن فيه فضيلة لاسيما عند الصنع الجميل ، ليستزيد من ذلـك ، ومحله حيث يؤمن الافتتان . وفيه المسابقة على الإقدام ، ولا خلاف في جوازه بغير غرض ، وأما بالعوض فالصحيح لا يصح .

❁❁❁

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨٢/١٢ -١٨٣ .

غزوة الحديبية (أو صلح الحديبية) :

والحديبية هي بئر سمي المكان بها ، وقيل : شجرة صغرت وسمي المكان بها [١].

قال **المحب الطبري** : الحديبية قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم [٢].

وعــن **الزهري** : (خرج عام الحديبية يريد زيادة البيت لا يريد قتالاً) [٣]، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ الآية[٤]. يشير البخاري إلى أنها نزلت في قصة الحديبية .

وكــان توجهه ﷺ من المدينة يوم الاثنين مستهل ذي القعدة سنة ســت كمــا وقــع عــند ابن سعد ن فخرج قاصداً إلى العمرة ، فصده المشــركون عن الوصول إلى البيت ، ووقعت بينهم المصالحة على أن يــدخل مكــة في العام المقبل ، عن زيد بن خالد ﷺ قال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية ...)[٥] .

وعن أنس قال : (اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر كلهن في ذي القعدة ، إلا التي كانت مع حجته ...) [٦].

---

(١) معجم البلدان ٢/٢٢٩ ، فتح الباري ٧/٣٤٩ .

(٢) فتح الباري ٥/٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٣) ابن هشام ٢/٣٠٨ .

(٤) سورة الفتح آية (١٨) ، وانظر فتح الباري ٥/٣٣٣ - ٣٥١ ، رقم ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ .

(٥) فتح الباري ٧/٤٤٠.

(٦) صــحيح الــبخاري مع فتح الباري ٧/٤٣٩، رقم ٤١٤٨ و ٣/٦٠١ ، رقم ١٧٧٨- ١٧٧٩ و ٧/٤٤٠ .

وعــن البــراء ﷺ قال : (تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان ....[1]) ، حديث البراء فـــي تكثيــر مــاء البئر بالحديبية ببركة بصاق النبي ﷺ فيها ووقع في روايـــة إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء : (كنا أربع عشر مائه) ، ووقـــع فـــي حديث جابر من طريق سالم بن أبي الجعد عنه أنهم كانوا خمـــس عشـــرة مائه ، ومن طريق قتادة : (قلت لسعيد بن المسيب : بلغنـــي عن جابر أنهم كانوا أربع عشر مائه ، فقال سعيد : حدثني جابر أنهم كانوا خمس عشرة مائة) .

ووقع عند ابن أبي شيبة (كانوا ألفاً وخمسمائة) [2].

والجمـــع بين هذا الاختلاف : أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة ، فمن قـــال : ألفـــاً وخمســـمائة جبر الكسر ، ومن قال ألفاً وأربعمائة ألغاه ، واعتمد النووي هذا الجمع [3] .

قصة تكثير الماء :

والحديبية بئر يشير إلى أن المكان المعروف بالحديبية سمي ببئر كانت هنالك هذا اسمها ، ثم عرف المكان كله بذلك .

فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فجلس رسول الله ﷺ على شفرها ثم دعـــا بإناء من ماء ثم مضمض ودعا ، ثم صبه فيها ، فتركناها ثم قال : " دعـــوها ســـاعة " . (ثم أنها أصدرتنا) المراد أي رجعتنا ، يعني أنهم

---

(١) صـــحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٤٤١ ، رقم ٤١٥٠، ٤١٥١، ٤١٥٢، ٤١٥٣، ٤١٥٤، ٤١٥٥.

(٢) المصنف ٧/٤٨٤ ، رقم ٣٦٨٤٥ ، وانظر : فتح الباري ٧/٤٤١.

(٣) النووي : شرح صحيح مسلم ١٣/٢- ٥.

رجعـــوا عنها وقد رووا ، وفي رواية زهير : (فأرووا أنفسهم وركابه) والركاب الإبل التي يسار عليها [1].

وعـــن جابر ﷺ قال : (عطش الناس يوم الحديبية ..) فوضع النبي ﷺيده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه [2].

وحـــديث البـــراء كان لإرادة ما هو أعم من ذلك ويحتمل أن يكون المـــاء لما تفجر من أصابعه ويده في الركوة وتوضئوا كلهم وشربوا وأمر حينئذ بصب الماء الذي بقي في الركوة في البئر ، تكاثر الماء فيها .

وأخرج أحمد من حديث جابر من طريق نبيح العنزي عنه وفيه : (فجاء رجل بإداوة فيها شيء من ماء ليس في القوم ماء غيره ، فصبه رســـول الله ﷺ في قدح ، ثم توضأ فأحسن ، ثم انصرف وترك القدح ، قال : فتزاحم الناس على القدح ، **فقال** : " على رسلكم " فوضع كفه في القـــدح ثم قال : " أسبغوا الوضوء " قال : فلقد رأيت العيون عيون الماء تخرج من بين أصابعه [3].

واخـــتلفوا في كيفية نبع الماء ، ونبع الماء من بين أصابعه وقع مراراً في الحضر والسفر [4].

۞۞۞

---

(١) فتح الباري ٧/٤٤٢ .

(٢) الإحسان ٨/١٦٨- ١٧٠ والأحاديث المشار إليها هي : ٤١٥٠، ٤١٥١ ، ٤١٥٢ .

(٣) أحمد : المسند ٣/٢٩٢ .

(٤) فتح الباري ٧/٤٤٢.

فضل من شهد الحديبية والبيعة :

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : (قال رسول الله ﷺ يوم الحديبية : " أنتم خير الأرض " ...) [١].

هــذا صريح في فضل أصحاب الشجرة ، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعــة بمكــة وبالمدينة وبغيرها ، وعند مسلم من حديث جابر مــرفوعاً : (لا يــدخل النار من شهد بدراً والحديبيَة) ، وروي مسلم أيضــاً من حديث أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول : (لا يدخل النار أحد من أصحاب الشجرة) [٢].

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال (لقد رأيت الشجرة ، ثم أنسيتها ..)[٣] المــراد بالشــجرة هي التي كانت بيعة الرضوان تحتها ، والحكمة في إخفائهــا هو أن لا يحصل بها افتتان لِمَا وقع تحتها من الخير ، لو بقيت لمــا أمن تعظيم بعض الجهال لها ، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نع أو ضر ، كما نراه الآن مشاهداً فيما هو دونها [٤].

فقــد وقع عند البخاري من حديث جابر : (لو كنت أبصر اليوم لأريــتكم مكان الشجرة)[٥] ، وهذا يدل علة أنه كان يضبط مكانها بعينه ، وإذا كــان فــي آخر عمره بعد الزمان الطويل يضبط موضعها ، ففيه

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٤٤٣/٧ ، رقم ٤١٥٤ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٥٧/١٦ – ٥٨ .

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٤٤٧/٧ ، رقم ٤١٦٢- ٤١٦٣- ٤١٦٣- ٤١٦٥ .

(٤) فتح الباري ٤٤٧/٧ .

(٥) صحيح البخاري مع فتح الباري ٤٤٣/٧ ، رقم ٤١٥٤ .

دلالـــة علـــى انه كان يعرفها بعينها ، لأن الظاهر أنها حين مقالته تلك كانت قد هلكت .

والســـبب في البيعة تحت الشجرة ما ذكره ابن إسحاق بقوله : (حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن رسول الله ﷺ بلغه أن عثمان قد قتل فقال :" لـــئن كانـــوا قـــتلوه لأناجزنهم " ، فدعا الناس إلى البيعة ، فبايعوه على القتال على أن لا يفروا ، قال : فبلغهم بعد ذلك أن الخبر باطل ، ورجع عثمان)[1].

وذكـــر أبو الأسود في " المغازي" السبب قال : (أن النبي ﷺ لما نزل بالحديبية أحب أن يبعث إلى قريش رجلاً يخبرهم بأنه إنما جاء معتمراً ، فـــدعا عمر ليبعثه فقال : والله لا آمنهم على نفسي ، دعا عثمان فأرسله وأمـــره أن يبشـــر المستضعفين من المؤمنين بالنصر القريب ، وان الله ســـيظهر دينه ، فتوجه عثمان فوجد قريشاً نازلين ببلدح ، قد اتفقوا على أن يمـــنعوا النبي ﷺ من دخول مكة ، فأجاره أبان بن سعيد بن العاص ، قال : وبعثت قريش بديل بن ورقاء وسهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ)[2] فذكـــر القصـــة التي وردت مطولة في " الشروط "[3] ، وفيها : (قال : وآمـــن الـــناس بعضهم بعضاً ، وهم في انتظار الصلح ، إذ رمى رجل مـــن الفـــريقين رجلاً من الفريق الآخر فكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، فارتهن كل فريق من عندهم ، ودعا النبي ﷺ إلى البيعة ، فجاءه المسلمون وهو نازل تحت الشجرة التي كان يستظل بها ، فبايعوه

---

(١) ابن هشام ٣١٥/٢ ، البداية والنهاية ١٩٦/٤ ، فتح الباري ٤٤٨/٧ - ٤٤٩ .
(٢) البيهقي : الدلائل ١٣٣/٤- ١٣٤ .
(٣) فتح الباري ٣٣٩/٥ .

علـــى أن لا يفـــروا ، وألقـــى الله الرعب في قلوب الكفار فأذعنوا إلى المصالحة) [1].

وروي مسـلم في حديث سلمة بن الأكوع قال : (ثم إن رسول الله ﷺ دعـــا إلى البيعة فبايعه أول الناس) فذكر الحديث قال : (ثم عن المشـــركين راســـلونا فـــي الصلح حتى مشى بعضنا في بعض ، قال : فاضطجت في أصل شجرة فأتاني أربعةٍ من المشركين ، فجعلوا يقعون فـــي رسول الله ﷺ ، فتحولت عنهم إلى شجرة أخرى ، فبينما هم كذلك إذ نـــادى مـــنادٍ من أسفل الوادي : يا آل المهاجرين ، قال : فاخترطت ســـيفي ثـــم شددت على أولئك الأربعة وهم رقاد فأخذت سلاحهم ، ثم جـــئت بهـــم أســـوقهم ، وجاء عمي برجل يقال له : مكرز في ناس من المشركين ، فقال رسول الله ﷺ : " دعوهم يكون لهم بدء الفجور وثناه " فعفـــا عنهم ، أنزل الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [2].

(فـــبعث النبـــي ﷺ عـــثمان ، وكانت بيعة الرضوان) المراد أن البـــيعة كانـــت بعد أن بعثه ، والسبب في ذلك أن النبي ﷺ بعث عثمان لـــيعلم قريشـــاً أنه إنما جاء معتمراً لا محارباً ، وفي غيبة عثمان شاع عـــندهم أن المشـــركين تعرضـــوا لحرب المسلمين ، فاستعد المسلمون للقـــتال ، وبايعهم النبي ﷺ حينئذ تحت الشجرة على أن لا يفروا ، وذلك

---

(١) فتح الباري ٧/٤٤٩ .

(٢) الآية (٢٤) من سورة الفتح ، الحديث في صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ١٧٤ – ١٧٥.

فــي غيــبة عثمان ، وقيل : بل جاء الخبر بأن عثمان قتل ، فكان ذلك سبب البيعة .

- وعــن يزيد بن أبي عبيد قال : (قلت لسلمة بن الأكوع : على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال : على الموت) [1].

❁❁❁

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٧/٤٤٩ ، رقم ٤١٦٩ و ٦/١١٨و ٧/٤٥٠.

شروط صلح الحديبية :

١- يرجع المسلمون عامهم فلا يدخلون مكة ، فإذا كان العام القابل دخلها المسلمون ، وحينئذ تخرج قريش منها ثلاثة أيام ، ولا يحمل المسلمون معهم إلا سلاح المسافر أي السيوف فقط في أغمادها .

٢- من جاء محمداً من قريش على رغم أهله رده إليهم ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم يردوه عليه [١].

٣- من أحب أن يدخل في عهد محمد دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه - فدخلت خزاعة في عهد النبي ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش .

٤- تقوم هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .

<u>أما المراجعة التي حدثت فكانت على النحو التالي :</u>

دعا الرسول علياً[٢] ليملي عليه قائلاً ، أكتب . بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : أمسك ، لا أعرف الرحمن الرحيم ولكن أكتب باسمك اللهم ، فقال المسلمون : والله لا نكتب إلا باسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي أكتب باسمك اللهم ، واستمر الرسول في الإملاء

---

(١) سواء كانوا موالى أو فتيانا فى رعاية أهليهم مثل أبى جندل فهو قرشي ابن كثير جـ٣ صـ٣٥ والسهيل جـ٢ صـ٢٣٣ وكذلك أبو بصير فهو من قريش . زاد المعاد جـ٢ صـ١٧٦ ، وفى البخارى أيضاً أنه رجل من قريش وهو مسلم ، قال ابن حزم : ثقفى حليف لبنى زهرة - جوامع السيرة ص ٢١٠ واسمه عبيد بن أسيد ابن (جارية) وقال ابن عبد البر أيضاً : إنه ثقفى حليف بنى زهرة،ى الدرر صـ ٢٠٧ .

(٢) صرح بذلك غير واحد من أصحاب الحديث - إمتاع الإسماع جـ١ صـ٢٩٠- ٢٩٧ .

قـــائلاً : هــذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال ســـهيل : أمسك . لو شهدت أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن أكتب محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على كذا وكذا وأخذ يملي الكتاب .

وبيـــنما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يتحامل فـــي قيوده وكان قد حبسه أبوه في مكة حين أسلم ليمنعه من الهجرة وقد انفلـــت مـــن أغلاله حينما علم أن النبي ﷺ والمسلمين في الحديبية فقام أبوه سهيل فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه يجره ليرده إلى مكة قائلاً : هذا يـــا محمد أول ما أقاضيك عليه على أن ترده ، قال النبي : أنا لم أفض الكـــتاب بعـــد ، فأجزه لي ، فأبى سهيل وأجاب النبي سهيلاً لما طلب ، وقـــال : يا أبا جندب أصبر حتى يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً ، فحدث اســـتياء عظـــيم من الصحابة حتى كادوا يهلكون ، غير أن النبي مضى في إتمام الكتاب حتى انتهى منه .

وهـــو أول عهد سياسي بين المسلمين وقريش وقد مهر بخاتم النبي وإمضـــاء ســـهيل ، وشهد عليه فريق من الجانبين وكتب من صورتين ، تسلم الرسول إحداهما ، وأخذ سهيل الأخرى لتودع في محفوظات مكة .

ولـــم يـــرق هـــذا الاتفاق في أعين جمهور المسلمين بخاصة فيما يختص بالشروط الأول والثاني ، وكان أشدهم نقداً له عمرو بن الخطاب ، فقد ظن أن الرسول قد سلم لقريش بكل شيء ، واستكبر أن ينقلب المسلمون إلـــى المديـــنة بعـــد أن قطعوا هذه المسافات الشاسعة دون أن يعتمرون ، وتعجـــب كـــيف يتـــنازل لدرجة أن لا يدعو الله باسمه الصحيح ، ولا أن يستعمل لقبه الذي لقبه الله به – لا شيء إلا لأن رجلاً كافراً قد طلب ذلك .

ولهـذا وثب عمر فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشـركين ؟ قـال : بلى . قال :فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : يا عمـر ألزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسـول الله ، ثـم أتى رسول الله فقال له مثل ما قال لأبي بكر . فقال النبي ﷺ : إني رسول الله ولست أعطيه وهو ناصري[1] .قال : أولست كـنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال بلى ، فأخبرتك انه العام ؟ قـال عمـر : لا ، قـال : فإنك آتيه ومطوف به ، قال عمر: ما زلت أتصـدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي حتى رجوت أن يكون خيراً .

ولـم يكـن مـا صنعه عمر شكاً في الدين ، وإنما لمعرفة وجه الحكمـة فـي تساهل النبي لقريش حتى تزول الشبهة التي فتنت الناس حيـنما ذكروا الرؤيا التي رآها النبي ليدخلن المسجد الحرام ، فمراجعته من الفعل المغفور لا المشكور .

وأعلـن الرسـول بوجـوب التحلل من العمرة ، وأمرهم بحلق رؤوسـهم ونحـر هـديهم فـي موضع الحصار والعودة إلى المدينة ، فتباطـئوا حتـى أمرهم ثلاثاً ، فدخل خيمته ورأت أم سلمة الغضب في وجهـه فأشارت عليه بأن يتحلل أمامهم ، فخرج واتجه إلى حيث الهدى منتظـر ، فاختار جمل أبي سفيان وأهوى عليه بالحربة قائلاً : بسم الله والله أكبر ثم دعا الحلاق فحلق رأسه وكان المسلمون يرقبونه ، وفطنوا أن ذلـك نوع من الحض وان الأمر واجب ، فإذا بالجميع يتدافعون في

---

(١) وفي رواية أنا عبد اله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنا الله . ٢/٢٣.

حلق رؤوسهم حتى لقد جرح الكثير منهم في رأسه . وفي لحظة أخرى كـــان رغـــاء الهدي يتردد في كل ناحية ، فقد انقض عليها المضحون يدفعـــون الســـيوف في رقابها دفعاً ، والرسول يرقب أعمالهم في ابتسام ورضـــى ، فاستغفر للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين واحدة ، لأن الأولين لم يشـــكوا أي لم يرجعوا أن يطوفوا بالبيت بخلاف المقصرين ، لأن الظاهر من حالهم أنهم أخروا بقية شعورهم رجاء أن يحلقوها بعد طوافهم بالبيت ، ثـــم أقـــبل الفقـــراء الـــذين كان من عادتهم أن يتبعوا الهدي ليتقاسموا ، وانســـحب المسلمون إلى المدينة ، وفي كراع الغميم بين الحديبية والمدينة نـــزلت سورة الفتح ، فقال النبي ﷺ نزلت على سورة هي أحب إلى مما نزلت عليه الشمس ثم عاد النبي ﷺ إلى المدينة بعد أن استغرقت رحلته عشـــرين يـــوماً ، وقـــال بعضـــهم شهراً ونصف شهر ، وإنما توقف الصـــحابة ﷺ بعـــد الأمر لاحتمال أنه للندب ، أو لرجاء نزول الوحي بإبطال الصلح ، وساغ لهم ذلك لأنه زمن وقوع النسخ ، أو لذهولهم لما تصـــوروه مـــن قبول الضيم مع اعتزازهم بالإيمان واعتقاد القدرة على قضـــاء مناســـكهم بالقوة ، أو لأن الأمر المطلق لا يقتضي الفور ، أو لأنهـــم فهموا أن الأمر بالتحلل رخصة في حقهم ، وأنه هو يستمر على الإحـــرام أخذاً بالعزيمة في حق نفسه ، فأشارت إليه أم سلمة لينتفي هذا الاحـــتمال عندما يروه فعل ، ومثله ما وقع له في غزوة الفتح من أمره لهم بالفطر في رمضان فأبوا حتى شرب فشربوا ، لكن ابن القيم قال : لو فهم منهم النبي ﷺ ذلك ما غضب عليهم ، فقد قال : مالي لا أغضب وأنا آمر بالأمر فلا أتبع.

۞۞۞

مناقشة الشروط :

وقـــبل مناقشة هذه الشروط ينبغي أن نلاحظ ان كلمة صلح التي أطلقـــت على اتفاق الحديبية لم يكن المراد منها ما يراد بكلمة صلح في المفاهـــيم العســـكرية الحديثة لأن المفهوم العسكري الحديث لكلمة صلح أعـــم مـــن مفهوم الاتفاق على وقف القتال الذي وضعه الرسول ﷺ مع قريش ، وغنما معنى كلمة (صلح) في اتفاق الحديبية هو ما يقابل في المفاهيم العسكرية الحديثة كلمة (هدنة) لن النبي الذي جاء لسحق الوثنية لـــم يكن ليصلح مع قوم وثنيين جاء ليهديهم على ان يتركهم وشانهم [١]، غير ان هذا التحديد الاصطلاحي لم يكن معروفاً في ذلك الحين ، فصح إطلاق كلمة (صلح) على هذه الهدنة .

كان هذا الصلح عملية انتصار بالنسبة إلى المسلمين ، ويعتبر عمل الرسول الفذ في السياسة وفيه ظهرت مقدرته الفائقة وذكاؤه النادر .

ولا يقال : إن تخليص المسلمين من الحديبية كان بتوجيه الوحي ، فقد أمره الله بالصلح مع قريش وقطع العمرة والعودة بالمسلمين إلى المدينة ، وقد ورد أنـــه قال عندما تبرم من شروط الصلح : أنا عبد الله ورسوله لن أخال أمره [٢]. وإذا فليس في تخليص المسلمين من قبضة قريش .

لا يقال هذا لأن الوحي وإن كان قد وجه النبي فقد ترك له التصرف في اختيار الطريقة التي ينفذ بها المسلمين وقد وقعوا في عرين الأسد .

---

(١) ولهـــذا قال بعضهم : لا يجوز مصالحة الكفار على أكثر من عشر سنين وحجـــتهم أن حظـــر الصلح هو الأصل ، وقال الآخرون : يجوز إذا رأى الإمام في ذلك مصلحة - السهيلي ٢/٢٠١ .

(٢) ســـيرة ابـــن هشـــام ٢/٢٣٠، ٢٣٢ و صحيح البخاري والكامل ٢/١١٠. وإنسان العيون ٣/١٠ ، وإمتاع الأسماع ١/٣٠٢- ٣٣٨ .

فعملية الإنقاذ كانت بتفصيلها من وحي خاطره .

ولقد أدرك ﷺ عندما كتب شروط الصلح أن المسلمين وقعوا فيما يشبه الورطة العسكرية ، حتى لقد ظن أن المسلمين لن ينقلبوا إلى أهليهم أبداً ، وكان يعلم أن المشركين لا يزالون أكبر عدداً من المسلمين وأعظم أهبة ، وأن خط المواصلات قد طال بينه وبين المدينة ، وليس مع المسلمين ما يكفيهم من الخيل والسلاح والرواحل ، وانه لا يأمن إذا انسحب دون صلح أن يتعرض لمطاردة قد تشترك فيها القبائل الواقعة على الطريق ، فأقل ما يقال في هذا الصلح أنه قبول أخف الضررين ، وقد حاول بعض فرسان من قريش أخذ المسلمين على غره قبل عقد الصلح فأرسل النبي ﷺ من كمن في طريقهم وأسر بعضهم ثم من عليهم وأطلقهم حفاظاً على قاعدة السلم .

وأن أي قائد في مثل موقفه كان سيضطر أن يعطي العدو كل شيء غير أن الرسول استطاع أن يأخذ من الأعداء دون أن يعطيهم .

فهذا الصلح عند النظر يعتبر الوحيد في تاريخ العالم ، الذي يكسب فيه الضعيف التوجس أكثر مما يكسب فيه القوي الآمن ، بل يغنم الضعيف كل شيء ويخسر فيه القوي كل شيء ، ويفتح للضعيف كل مغنم ، ويجر على رأس القوي كل خسارة .

هذا من وجهة النظر العامة لقيادة عسكرية في مثل هذا الموقف . أما من وجهة الواقع فإن النبي ﷺ لو قبل التحدي وقاتلهم لكان من المرجح أن ينتصر عليهم ، فما كان الله ليتركه وقد وعده أن يدخل المسجد الحرام آمنا مطمئناً ، وإن الله ليخلق من الضعيف قوة . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ .

لم يقتصر هذا الصلح على قريش ، فقد دخلت قبائل أخرى في هدنة مع الرسول بنفس الشروط ، واحدة واحدة ، ودخولهم وحدانا يعني أنه إذا أخلت قبيلة منهم بشرط من شروط صلح الحديبية يحاربها الرسول وحدها متقيداً بالشروط غيرها فكأن الرسول جمعهم على سلم ، وفرقهم على حرب ، وبذا منع التكتلات العسكرية ضده ، وضمن عدم عودة الأحزاب وهذه ضربة لم تفقهها قريش ولا أحلافها .

أما البسملة وباسمك اللهم فمعناهما واحد ، وليس في ترك وصف الله بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك ، ولا في ترك وصف النبي بالرسالة ما ينافيها ، فلا مفسدة ، إنما المفسدة فيما لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من أسماء آلهتهم .

صحيح أن الرحمن الرحيم كلمتان عربيتان ، ولكن المفاوض الجاهلي غلب عليه الجهل والغشم حينذاك ن ولم يرد النبي ﷺ أن يحطم شروط الصلح على صخرة التمسك بالألفاظ والأساليب ما دام المفاوض الجاهلي لم يفقه في غمار تعصبه وانغماسه في حمأة الجاهلية ما تنطوي عليه الشروط من مزايا ، ولا بأس في سبيل هذه المزايا أن يرضى النبي ﷺ غرور هذا المتزمت الجامد في المحافظة على تقاليده بعبارة لا تتنافى مع قواعد الإسلام :

١- وشرط رجوع المسلمين هذا العام قد أظهر قريشا بمظهر المعتدين الذين يصدون الناس عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ، وأبان عن قيمة المبادئ الإسلامية وسماحتها وتضحيتها في سبيل السلم ، وفي الوقت نفسه لفت المسلمون أنظار العرب إلى قوتهم النامية التي تحركت لأول مرة نحو مكة ، وقد كانت من قبل تغزى في

دارهــا وأن هذا الجيش سيحمل دعوة الإسلام يوماً إلى مكة ، وقد استطاع قائده هذا الصلح أن يظفر من العدو بشرط يجعله الطريق إلى مكة مرتين قبل فتحها .

٢- وشرط رد الموالي والقاصرين من قريش إلى عشيرتهم بمكة كان لا شك في صالح المسلمين لأنه إن كان مسلماً زيفاً فهو سد لــباب التجســس الــذي قد يقضي لأن يستوطن المدينة رجل أو رجــال من القرشيين الموتورين فيتظاهرون بالإسلام ويأتمرون بالنبــي أو أحد أصحابه ، وإذا فرض في هؤلاء اللاجئين الإيمان الصــحيح فــإن ردهم إلى مكة لا يزيل عنهم صفة الإسلام وقد يجعل منهم طائفة يقوي بعضها بعضاً ، ويعلون بعضها بعضاً ، وإذا فلــيس من المعقول أن يتمسك بهم الرسول بالمدينة ، ويرى الــبعض أن رد اللاجئــين إلى قريش نوع من التضحية احتمله النبــي فــي سبيل المحافظة على العهد ورعاية الذمة ، على أن هــذه الفقــرة قد قلها الله لمصلحة المسلمين كما يأتي ، ومما هو جديــر بالنظر أن هذا الشرط كان خاصاً بالرجال ولم ينسحب على النساء حماية لهن من أهلهن الكفار ، ولأنهن لا يستطعن مضطربا في الأرض إذا ردهم النبي ﷺ .

ولا يــؤخذ مــن هذا جواز رد المسلم إلى دار الكفر ، لأن هذا الشــرط كــان خاصاً بالرد إلى مكة وفيها خطة تعظيم الحرم وتوثيق العرى بين ضعفاء المسلمين فيها .

ولعل مما يخفف هذا الشرط أيضاً أن رد المسلم إنما كان لعشيرته ، وغالباً ما كانت عشيرته تكتفي بحبسه أو الحد من نشاطه أو التضييق عليه

دون أن يلجـأ إلى قتله ، وفي مسألة جندل لم يتركه النبي حتى طلب من أبيه أن يجيره له أي (يمتنع من تعذيبه) فقبل بعد تردد .

أمـا عـدم رد اللاجئـين مـن المسلمين فهو أيضاً في صالح المسـلمين لأن الـذي يرتد لا حاجة للمسلمين به ، بل في وجوده بين المسـلمين أكبر الضرر على أنه لم يكن منتظراً أن يرتد أحد بعد أن ذاق حلاوة الإيمان [1].

ولـو أن النبي ﷺ اشترط على قريش أن ترد إليه من يقصدها مـن رجالـه لنقض بذلك دعوى الهداية الإسلامية والحرية ، على أن لاجـئ المسـلمين كـان لابـد أن يفكروا في شأن أنفسهم و يلتمسوا الخـلاص بأي سبيل ، وقد قال الرسول في ذلك : " لعل الله يجعل لهم مـن أمرهم فرجاً " وقد تحقق هذا ، فلم يكد أبو جندل بن سهيل يذهب مـع أبـيه حتى ألت في الطريق وهرب إلى ساحل البحر في طريق الشام ولحق بأبي بصير[2] الذي جاء إلى النبي ﷺ مسلماً وكان محبوساً بمكـة فأرسلت قريش رجلين في طلبه أسلمه النبي ﷺ إليهما فاحتملاه حتـى إذا مـا وصـلوا ذا الحليفة وثب أبو بصير على أحدهما فقتله وخرج حتى أتي سيف البحر فنزل بمكان يقال له العيص على طريق قـريش إلـى الشام ولما علم النبي ﷺ بما فعل قال : ويل أمه يخش حـرب لـو كـان معه رجال ، ولما ذهب أبو جندل لحق بأبي بصير فما يخـرج من قريش رجل إلا ولحق بأبي بصير وهكذا صدق وعد النبي ﷺ له : " إن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً" . .

---

(١) السهيلي ٢/٢٢٦- ٢٣٠.

(٢) الطبـري ٢/٢٨٤ وفي شرح البخاري أن النبي راجعه واحتج عليه بأنه لم يفرغ بعد من الكتاب وطلب من سهيل أن يجيزه فلم يقبل سهيل لكنه قبل أن يجيزه أي يمتنع من تعذيبه.

حتـــى ألفوا هناك مسلحة تربوا على الستين جعلت دأبها الغارة علـــى قوافل قريش التجارية حتى ضايقوها وكادوا يشلون حركتها ، وهـــذا لا يمكن اعتباره خرقاً لقاعدة الصلح ، ولا يمكن أن يلام عليه المســـلمون ، ولمـــا اشتد الخطر على هذه المتاجر أوفدت قريش إلى رســـول الله تسأله أن يستقدم هؤلاء الرجال ن ويكف أذاهم ، وترجوه بأرحامهم أن يتنازل عن هذا الشرط فوافق على ذلك .

وبعـــد الفراغ من الكتاب جاءت سبيعة بنت الحارث إلى النبي مظهـــرة الإســـلام فأقبل زوجها وكان مشركاً وطلب ردها إليه بمقتضى الصـــلح ، نـــزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ..﴾[1] بياناً لخروج النساء المسلمات من العموم للفرق الظاهر بينهن وبين الرجال ، لأن الرجل لا يخشى علـــيه الفتنة في الرد مثل ما يخشى على المرأة ، فامتحنها النبي كما أمره الله ، فيحلفها أنها ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت إلا حـــباً لله ورسوله ، ثم كان النبي يمنعهن من الذهاب إلى أزواجهن ثم يعطي أزواجهن ما أنفقوا عليهن من صداق إذا كانوا معاهدين أما إذا كانـــوا أهـــل حرب فلا يعطوا باتفاق ، وقد هاجرت نساء أخريات مـــنهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وأخت عثمان بن عفان لأمه ، فجاء أخواها يطلبانها فأبى الرسول ، وأخبر الوفد بأن المعاهدة وقعت على الرجال دون النساء وتزوجها زيد بن حارثة [2].

---

(١) سورة الممتحنة من الآية (١٠) .

(٢) يهمنا هنا أن نبحث عن نص الشرط لنعلم منه هل كان ينسحب على النساء أم هـــو خاص بالرجال ، فجمهور كتاب المغازي يعبرون عن الشرط كما فهموه ، فعند ابن كثير : " من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه – السير=

٣-أمـــا الشـــرط الـــثالث وهو من أراد أن يدخل في حلف من يشاء دخل فيه ، فهو شرط يقرر مبدأ قد وفر على المسلمين تضحيات كبيـــرة في الأنفس والأموال ، وفيه تحديد لموقف القبائل العربية مـــن المســـلمين تحديـــداً دقيقاً عرفوا منه عدوهم من صديقهم ، وشجع القبائل المترددة على الدخول في الإسلام ، فدخلت خزاعة – وهي قريبة من مكة – في حلف مع المسلمين .

= النبوية جـ٢، وعند الطبري : " من أتى رسول الله من قريش بغير إذن ولـــيه " – الطبري ٢٨١/٢ ، وعند ابن سعد : " من أتاه من المشركين يرد إليهم " . الطبقات الكبرى ١٤٦/٣ . وفي ابن الأثير : " من أتى منهم رسول الله بغيـــر إذن وليه " – الكامل ١٣٨/٢ ، وعند ابن القيم : " من أتاك من أصـــحابنا رددته علينا " – زاد المعاد ١٧٧/٢ ، وعند ابن حزم :" من جاء مـــن الكار إلى المسلمين مسلماً – من رجل أو امرأة – " – جوامع السيرة ص ٢٠٨ ، وعند القسطلاني : " وعلى أنه لا يأتيك منا رجل " – المواهب ١٢٩/١- ١٣٠ .

ومـــن هـــذا يتبين أن التعبير في الغالب من الرواة ، أما النص الأصلي فقد جاء في رواية مسلم من حديث أنس :" أن قريشاً صالحت النبي ﷺ على أن مـــن جاءنـــا مـــنكم لـــم نزده إليكم ومن جاءكم منا رددتموه إلينا " ورواية البخاري أكثر صراحة قال : " اشترط سهيل على النبي ﷺ أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا " أي بلفظ (أحد) لا بلفظ (رجل) وإذا فالتعبيـــر من ناحية المنطوق في أكثر الروايات يشمل (المرأة) لكن الشرط لم يطبق على النساء قيل هذا نسخ للشرط في النساء ، وقيل تخصيص للسنة بالقـــرآن ، وهو قليل جداً ن وقيل إن الشرط لم يقع إلا على الرجال خاصة وأراد المشـــركون أن يعمموه في الجنسين فأبى الله ذلك ، وادعى بعضهم أن الشـــرط : " إن جـــاءك منا رجل " وعلى كل حال فالمرجح إن لم يكن مؤكداً أن النساء لم يذكرن صراحة في العقد وإلا لكان فيه نقض من جانب النبي ﷺ وهو بعيد ، لأن المكيين

